****

سلسلة تدبر معاني وبلاغة القرآن الكريم

**منتقى التفاسير**

**تفسير سورة البقرة الآيات (65- 101)**

جمعه وحققه وعلق عليه

الفقير إلى ربه

أبو عمر د. محمد عبد المعطي محمد

نقرأ سوياً في هذا الكتاب

1. **قصة أصحاب السبت ودروس غالية.**
2. **لماذا كثر الخطاب لبني إسرائيل وهل هم يهود اليوم؟**
3. **دلالات صيغة الأمر في القرآن الكريم.**
4. **نقد علمي للتفسير العقلاني للغيبيات في كتاب الله تعالى.**
5. **قصة البقرة وتفاصيل عجيبة للقصة الرئيس في سورة البقرة.**
6. **موقف العلماء من الإسرائيليات.**
7. **الأسلوبية والسياق البلاغي الرائع لقصة البقرة.**
8. **ما يؤخذ من قصة البقرة من عظاتٍ وعِبر.**
9. **الغيبيات في كتاب الله بين المجاز والحقيقة؛ دراسة موجزة.**
10. **الوحدة البنيوية والخطابية والدلالية في كتاب الله ووجهٌ من العلم يستحق الدرس.**
11. **روعة التفنن القرآني في توجيه الخطاب ليمتد خارقا حجب الزمان والمكان.**
12. **ما مدى تحريف ما يحمله اليهود والنصارى اليوم من الكتاب؟**
13. **أهمية المعرفة وآفات الأمية في حياة الأمم، ولماذا كان أول ما نزل من كتاب الله {اقرأ}؟!**
14. **ليس لله شعب مختار، وفضح لشبهات المرجئة بنظير هذا الخطاب.**
15. **التوحيد ونبذ الشرك أولاً ثم المعاملات والأخلاق هذه بنية الدين الحق.**
16. **مشوار طويل مع عناد بني إسرائيل والخطاب موجه لتقويم الأمة المحمدية وتحذيرها من مهاوي القوم.**
17. **أسرار التكرار في القرآن الكريم وعظمة بلاغته.**
18. **من فقه الدلالة في القرآن العظيم.**
19. **وقفات مع التفسير الموضوعي والشمولي للقرآن الكريم.**
20. **البلاغة التصويرية في كتاب الله وتذوقها.**
21. **القرآن بعظمته يكشف نفسية اليهود في كل العصور.**
22. **نقاش جميل بين المفسرين، وأدب العلم والعلماء.**
23. **مراتب الرواة عن ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير.**
24. **الخيانة طبع اليهود الذي لا يتغير.**
25. **نماذج راقية من الحجاج القرآني، وروعة تقرير الحق بأسلوب القرآن.**
26. **نكت وملح وشوارد بلاغية ولغوية ممتعة.**

**كل هذا وأكثر في ما يسر الله تعالى لنا من جمع في هذا الكتاب الصغير الحجم، ونسأل الله تعالى المعافاة على الزلل، وقبول العمل.**

# بسم الله الرحمن الرحيم

**والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.**

**ما كان لأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أن يقول مقالته البليغة: ( لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله )؛ إلا وقد حقق ذلك عملاً وسلوكاً.**

**فما مات عثمان رضى الله عنه حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه. أولئك المؤمنون حقاً الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله تعالى أهلين من الناس: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته».([[1]](#footnote-1))**

**فإن الإقبال على القرآن والانتفاع به تلاوة وتدبراً وعملاً متحقق لأصحاب القلوب الحية، كما قال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)} [يس: 69، 70]. أي حي القلب.**

**فإذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وهيئ سمعك لتلقيه وتدبر معانيه، لا لمجرد الاستلذاذ بسماعه وتغنِّيه، فإنما أنزله الله تعالى لتدبره، والعمل به فاعلاً عاملاً ومغيراً في حياتنا.. قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)} (ص: 29).**

**وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدى إلى معرفة ما يُدْبِر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ، لم يستفد منه كبير فائدة، وكان مثله كمثل من له لقحة درور (أى إبل كثيرة اللبن) لا يحلبها، ومهرة نثور(أى كثيرة الولد) لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيدٌ وصبيانٌ لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما يُرَى للقرآن عليه أثرٌ في خلقٍ ولا عملٍ، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوَرِعَة (= أهل الورع)؛ لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين.([[2]](#footnote-2))**

**قال الغَزَّالِيُّ في «الإحْيَاءِ»:**

**اعْلَمْ أن القرآن مِنْ أَوَّلِه إلى آخِرِه تحذيرٌ وتخويفٌ لاَ يَتَفَكَّرُ فيه مُتَفَكِّرٌ إلا وَيَطُولُ حُزْنُهُ، وَيَعْظُمُ خَوْفُه إنْ كَانَ مُؤْمِناً بِمَا فِيه، وَتَرى النَّاسَ يَهْذُّونَهُ هَذًّا، يُخْرِجُونَ الحُروفَ مِنْ مُخَارِجِها، ويَتَنَاظَرُونَ على خَفْضِها ورَفْعِها وَنَصْبِها، لاَ يَهُمُّهُمْ الالتفات إلى معانيها والعمل بما فِيها، وَهَلْ في العِلم غُرُورٌ يَزِيدُ على هذا ؟! انتهى من كِتَابِ ذَمِّ الغُرُور.**

**قيل في تفسير قوله تعالى: {يا يحيى خذ الكتاب بقوة} أي بجِد واجتهاد، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره.**

**قَالَ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا فِقْهَ فِيهَا، وَلَا فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا. وعن أبي سليمان الداراني: أنه قال إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها.**

**يقول تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْب أو ألقى السمع وهو شهيد} ( ق: 37 ).**

**\*\*\*\***

**أقول: إن القضية هي ما وراء التفسير وليس التفسير بمجرده هو الذي أروم في هذه السلسلة المباركة، فالقضية تتعدى حل الألفاظ وإدراك معاني التركيب إلى الغوص في عمق المعنى ومواصلة البحث عن قيم الإسلام الثابتة وتجدد معانيه لتلائم العصر، والتنقيب عن معاني تجدد اليقين وزيادة الإيمان في ثنايا وحنايا نظمه المعجز.**

**الحديث هنا عن إعجاز القرآن في تخطي حدود الزمان والمكان والظروف والحوادث والمستجدات إلى أفقٍ أرحب ينتظم الجميع على مر الدهور في تناسبٍ ولحمةٍ قرآنيةٍ عجيبةٍ تتسم بالرسوخ والتجدد في آنٍ واحدٍ دون طغيانٍ لثباتٍ على جديدٍ، ولا تطاول جديدٍ على الثابت في أخلاق القرآن وقيمه ومناقشاته وتشريعاته الراقية الباقية أبد الدهر شاهدةً على عظمة الرسالة المحمدية الخاتمة، وحافظةً لتاريخ دعوة التوحيد منذ أنزل الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض ليوحد ربه ويعمرها بإذنه سبحانه.**

**إنه الحديث عن (لغة القرآن) ونعني بها طريقة القرآن وسنته في تركيب اللغة واستعمالها وتوظيفها؛ ثم إنه الحديث عن (نظم القرآن وبلاغته)، وهو الحديث عن ( التناسب) وعلومه داخل القرآن العظيم، وكذا الحديث عن وحدة القرآن التي تتلاقى على كافة مستوياته، وهو أيضا الحديث عن تفسير القرآن بالقرآن، وتتام وتكامل آيات الله وكلماته مع بعضها البعض في نظرة ( شمولية) للقرآن العظيم...**

**إنه حديثٌ مستفيض لقراءةٍ منهجيةٍ في نظام القرآن المعجز انطلاقاً من أن كلام الله ليس ككل الكلام وإنما له مميزات ينبغي للدرس القرآني أن ينطلق منها واضعا في حسبانه أسس نظرية/ تطبيقية لفهم كلام الله تعالى على أقرب ما يكون سداداً من خلال تأمله من داخله..**

**إنني في الحقيقة أتعلم واستمتع أيَّما استمتاع حين أتجول سعيدا في رياض القرآن اليانعة أقطف من ثمره الجميل وأرى زهوره المتفتحة تسر الناظرين، إن كل ملكات الاستمتاع في نفسي تصل إلى أوجها حين ترى علوم الدنيا والدين، وكل نافعٍ وماتعٍ في رياض هذا القرآن العظيم.**

**سعادتي في جمعي هذا، ومحاولة لتحقيق معنى التدبر الذي أمرنا به سبحانه.**

**ولأن الأمر جلل والخوض خطير، وأنا الجاهل الفقير، كان اعتمادي على الله تعالى ثم ما تعب فيه علماؤنا أعزهم الله تعالى مما تركوه لنا من تراث عظيم في دين الله وتفسير كتابه نقف عند ما يسعنا المقام الوقوف عليه وننطلق منه متأملين متدبرين، راجين الله تعالى العفو عن الزلل، وقبول العمل؛ فوالله ما قصدنا إلا الخير.**

**(يقول الخويي- ومعه أردد: اعلم أن بعض الناس يفتخر ويقول كتبت هذا وما طالعت شيئا من الكتب، ويظن أنه فخر؛ ولا يعلم أن ذلك غاية النقص.. فإنه لا يعلم مزية ما قاله على ما قيل، ولا مزية ما قيل على ما قاله؛ فبماذا يفتخر.. ومع هذا ما كتبتُ شيئا إلا خائفا من الله مستعينا به معتمدا عليه فما كان حسنا فمن الله وفضله بوسيلة مطالعة كلام عباد الله الصالحين وما كان ضعيفا فمن النفس الأمارة بالسوء ).([[3]](#footnote-3))**

**ما زلنا نواصل بحمد الله ورعايته تفسير سورة البقرة في (منتقى التفاسير) مما حوت السورة الكريمة من الفوائد واللمحات البلاغية والمعاني الراقية، واللهَ نستعين.**

**وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم**

**والحمد لله رب العالمين**

**وكتبه الفقير إلى ربه دوماً**

أبو عمر/ محمد عبد المعطي محمد.

# إشارة تذكير إلى قصة أصحاب السبت.

**قال المولى عز وجل: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)} (البقرة: 65، 66)**

 **في هذه الآيات يمتد الحديث عن إنعام الله تعالى على بني إسرائيل ومقابلتهم نعمة الله تعالى بالكفران والجحود، وقد تحدثت الآيات فيما سبق عن رفع الطور فوق القوم تهديداً لهم حين حُمِّلوا التوراة ولم يحملوها، قال لهم ربنا تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63)}**

**(وبعد أن ذكر لهم تلك الآية، وما اتصل بها من الهداية، ذكَّرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة والإعراض عن القبول، ثم امتن عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة، والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة، فقال تعالى:{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)}).([[4]](#footnote-4))**

**و(التولي) كما قال الأصفهاني: أصله الإعراض عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمر والدين - انتهى. وهو هنا الإعراض المتكلِّف بما يُفهِمه تصريفها على ’’التَّفَعُّل’’ - قاله الحرالي. وذلك لأن النفوس إذا توطنت على أمر الله فرأت محاسنه في الفطرة الأولى لم ترجع عنه إلاّ بمنازعة من الهوى شديدة.([[5]](#footnote-5))**

**لقد أعذر الله تعالى إليهم بعد رأوا الآيات والمعجزات تبين ساطعةً لكل بصير. ثم أخذ عليهم المواثيق مرةً بعد مرةٍ بما فيه صلاحهم من تنظيم لمنهج الحياة بالشرع الرباني العظيم، ولكنهم أبوا إلا ادعاء الإيمان دون الاعتداد بتكاليفه وتبعاته، فلم يقبل الله تعالى دعواهم، بل لعنهم بكفرهم. فبيَّن لهم ( ولأمثالهم من المرجئة في كل أمة) في قصة أصحاب السبت أنهم لما ضيعوا أمراً واحداً من أوامره واستخفوا به وهو تحريم السبت عذبهم بعذاب لم يعذب به أحداً من العالمين، ثم يقال هنا إنه سبحانه لما ذكَّرهم بنعمة العفو عند نكوصهم عن عهدهم ذكَّرهم توبيخاً أن فريقاً منهم استحلوا ما حرَّم الله تعالى استخفافاً حتى غلبهم الخسران فما ضروا إلاّ أنفسهم، مقسماً على أنهم بها عالمون ولها مستحضرون.**

 **والسياق ما زال في تذكير بني إسرائيل بمخازيهم، ووعظهم ووعظ غيرهم في عاقبة الكفر بدين الله ونقض مواثيقه، وفي هذا تثبيت للمؤمنين ووعظ لهم وبيان للصراط المستقيم بفضح ما يضاده من سبل المجرمين، كما قال تعالى: {وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70)} (آل عمران: 69، 70).**

**( والقوم هنا لم يستجيبوا لتلك الدعوة الإيمانية، بل تولّوا ونكصوا على أعقابهم، ولكن الله أمهلهم، ولم يعجّل لهم العقاب، كما وقع لأسلافٍ لهم من قبل.. خالفوا أمر الله واعتدوا في السّبت، فمسخهم الله قردة، وأنزلهم من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان، فما أبشع تلك صورة وأخسّها، يعيشون في صور القرود بمشاعر الإنسان، وإدراك الإنسان، وذلك هو العذاب، ولعذاب الآخرة أخزى وأوجع!.([[6]](#footnote-6))**

## **خطاب بني إسرائيل الممتد في القرآن عبر الزمان، ورد لشبهة ؟؟**

**أقول: هنا يأخذنا ملمح راقٍ من ملامح تدبر القرآن العظيم، ألا وهو تدبر الخطاب القرآني، ودلالاته، وبلاغته اللامتناهية في التوقيع النفسي العالي لدى المتلقي.**

**وبدون تعقيدات كثيرة، فالخطاب هنا لبني إسرائيل ممن عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديث عن أسلافهم هو لهم من حيث أنهم (أمةٌ تاريخيةٌ) تعيش دائما على تاريخها وتحفظه أشد الحفظ، ومنه تنطلق في حاضرها ومستقبلها.**

**ومن هذا المنطلق كان الخطاب القرآني لهم عن طريق أخطاء وكبوات أسلافهم؛ وكأنه خط زمني متصل لا ينقطع أبداً، والخطاب لهم في سورة البقرة هنا يتنوع بين امتنانٍ من الله عليهم بالآيات الداعية للإيمان، وتبكيت لهم ووعيد على كفرهم، و عودٌ للامتنان بالعفو عن جرائمهم المتلاحقة.**

**هذا الخطاب المتواصل هو خطابٌ متداخلٌ من التوجه تارةً للأسلاف وتارةً للخلف، فإذا كان الخطاب {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ... الآية} لأسلافهم، فالخطاب بعد ذلك للخلف {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ... الآية}؛ وربما امتزج الخطابان في سياقٍ واحد، بحيث يتصل خطاب القرآن للأسلاف بخطابه مع أحفادهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيهاً لاتصال الخطاب بأحفادهم وخلفهم عبر كل العصور التي تأتي بعد.**

**ولنتأمل بلاغة وشمولية وعبقرية إعجاز الخطاب الرباني ههنا.**

**ودون كثير جدالٍ حول الأصول التي ينحدر منها اليهود في عصرنا الحاضر، واختلاط الدم اليهودي بغيره من عدمه، فإن تاريخ اليهود يجمعهم، وكذا مدعاة انتسابهم لإسرائيل عليه السلام التي يبنون عليها أسس تاريخهم ودينهم وسياستهم ودولتهم، ومنها ينطلقون ويعادون ويوالون ويحاربون ويسالمون، وإن كان أكثرهم في الواقع ملاحدة كفار بموسى عليه السلام قبل كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.**

**وشأنهم في ذلك شأن الشيعة الروافض اليوم؛ فبالرغم من ادعائهم المستمر النسبة لآل البيت – وهم منهم براء- يعلم المدقق أنهم أقرب إلى مشركي المجوس اعتقاداً وسياسةً، ولكن منطلقهم العام من قضية التشيع التي يصبُّون فيها كل ضلالاتهم.**

 **فلا عجب كان الخطاب في القرآن كله إذن من هذه الركيزة التي يدَّعون أو وهموا نسبتهم إليها {بني إسرائيل}. والذي يدركه كل باحثٍ ومدققٍ في حياة الأمة اليهودية تمسكهم الشديد ب(تاريخانية الطرح والمنطلق)، وأنَّ المنطلق التاريخي الذي خاطبهم به القرآن العظيم هو أساس دولتهم وسياستهم ومواقفهم على مر العصور.**

**وإن هذا المنطلق العقدي والتاريخي والأممي والأيدولوجي لليهود أو النصارى أو الشيعة أو غيرهم هو ما يحدد سياسات وتوجهات تلك الأمم وليس المنطلق العرقي الإنساني (= الأنثروبولوجي).**

**وإن تحييد العقيدة والتاريخ والأممية من توجيه الفكر والسياسة وفهم المواقف هو إما جهلٌ قبيحٌ أو غرضٌ خبيثٌ من أجل (علمنة المواقف) في زمانٍ يدين فيه العالم أجمع بنظرية ( صراع الحضارات clash of civilizations )؛ وندين نحن بالهبل والسذاجة في الفهم والتوجه.**

**فالتاريخ يصنع أمة والأمة تتبني ديناً وعقيدةً لتجمع أبناءها ولو من كل جنسٍ مختلف. ويكون الانتماء الأول ههنا للعقيدة والتاريخ لا للجنس والعرق.**

**وذلك هو المزلق الذي استدرج به المستشرقون بعض باحثينا لتحييد العقيدة من الصراع.**

**ومنه لاتهام القرآن – عن طريقٍ خفي – بأنه تاريخاني قد مات في عصره وألَّا وجود لمعاني خطابه اليوم في زمن الحرية والإنسانية العامة (!!).**

**وإن المتتبع لتاريخ العلاقات ما بين الغرب وشعوب الإسلام، يلاحظ حقداً مريراً يملأ صدر الغرب حتى درجة الجنون، يصاحب هذا الحقد خوف رهيب من الإسلام إلى أبعد نقطة في النفسية الأوروبية. هذا الحقد، وذلك الخوف، لا شأن لنا بهما إن كانا مجرد إحساس نفسي شخصي، أما إذا كانا من أهم العوامل التي تبلور مواقف الحضارة الغربية من الشعوب الإسلامية، سياسياً، واقتصاديًا، وحتى هذه الساعة، فإن موقفنا يتغير بشكل حاسم.**

**يقول الاستاذ سيد قطب في الظلال:**

**إن «الحروب الصليبية» المعروفة بهذا الاسم في التاريخ، لم تكن هي وحدها التي شنتها الكنيسة على الإسلام.. لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير.. لقد بدأت في الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد.. منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفرس وأخذ النصارى يعينون الفرس ضد الإسلام في جنوب الجزيرة.**

**ثم بعد ذلك في «مؤتة». ثم فيما تلا موقعة اليرموك الظافرة.. ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس عند ما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية في أوربة، وارتكبت من الوحشية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظيراً من قبل.. وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق بمثل هذه البشاعة التي لا تتحرج ولا تتذمم ولا تراعي في المسلمين إِلاًّ ولا ذمة.انتهى.**

**ونقول للمثبطين التاريخ لا يكذب وإن حاولوا تحريفه؛ فقد حاولوا تدمير الإسلام في الحروب الصليبية (crusades ) الرهيبة التي امتدت أكثر من سبعة قرون ففشلت جيوشهم التي هاجمت بلاد الإسلام بالملايين، فعادوا يخططون من جديد لينهضوا.. ثم ليعودوا إلينا، بجيوش حديثة، وفكر جديد.. وهدفهم تدمير الإسلام من جديد.. كان جنديهم قديما ينادي بأعلى صوته، حين كان يلبس بزة الحرب قَادِمًا لاستعمار بلاد الإسلام: «أُمَّاهُ... أَتِمِّي صَلاَتَكِ.. لاَ تَبْكِي.. بَلْ اضْحَكِي وَتَأَمَّلِي.. أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى طَرَابُلْسَ...فَرَحًا مَسْرُورًا.. سَأَبْذُلُ دَمِي فِي سَبِيلِ سَحْقِ الأُمَّةِ المَلْعُونَةِ... سَأُحَارِبُ الدِّيَانَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ... سَأُقَاتِلُ بِكُلِّ قُوَّتِي لِمَحْوِ القُرْآنِ.... ».**

**وبعد أكثر من عشرة قرون يُستخدم نفس المصطلح الذي جاءوا به من ألف سنة ليدمروا الإسلام من قبل الرئيس الأمريكي جورج بوش لوصف ما أسماه الحرب على الإرهاب في 11 سبتمبر 2001 في عبارة مثيرة للجدل ’’This crusade, this war on terrorism is going to take a while.’’ أي ’’هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب سيستلزمها وقت طويل.’’..**

**وإذا صرخ بنا أذناب الغرب المنافقون وقالوا: تحمِّلون الأمر فوق ما يحتمل ! أنتم مرضى بنظرية المؤامرة ! كما قال بعض الصحفيين الأذناب.. نقول له: لقد انتقد أحد كبار السياسيين الأمريكان الرئيس لاستخدامه هذه العبارة , وذلك في البرنامج الشهير ’’NIGHTLINE’’ الذي يقدمه المذيع الأمريكي ( تيد كوبلز) في قناة ABC حيث قال:’ أخطأ الرئيس في استخدامه هذه العبارة ’’الحروب الصليبية’’ وذلك لأسباب منها:
أولا: أن الصليبين في الحقيقة قد هزموا في تلك الحروب على يد صلاح الدين، وليس من المناسب التذكير بهزيمة في وقتٍ نحن في أمس الحاجة فيه إلى النصر.
ثانيا: هذا المصطلح ’’الحروب الصليبية’’ سوف يثير وبشكل كبير حلفاؤنا من المسلمين الذين نحن في أمس الحاجة إليهم في معركتنا الوشيكة مع الإرهاب ’’(يقصد حربهم ضد الإسلام).**

**فليس الأمر إذن عندهم أن الرجل تكلم بشئٍ يخالف اعتقادهم ومنهجهم ولكن الأمر في التوقيت الذي فضح فيه ( بوش) مخططهم.. فلنتنبه.**

**إن الحرب كانت- وهى اليوم على ما كانت وستظل- حروب عقيدة بمعناه الشامل.**

**والمسلم يحمل في يدٍ كتاب الله تعالى وأخلاق رحمته يدعو إليها، وفي اليد الأخرى سيفاً يخيف به الذين يتربصون بدينه.**

**وإن انتماء المسلم هو ابتداءً إلى الإسلام؛ إلى الله ورسوله وشرعه وكتابه ثم يأتي كل شئ بعد. وإن العقيدة (بضوابطها) هى الجامع والمنطلق والمسار والهدف {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} (المؤمنون52).**

**وما أحسن ما قال صاحب’’ الظلال’’ \_ غفر الله له ورحمه:**

**( عقيدة المؤمن هي وطنه , وهي قومه , وهي أهله.. ومن ثَم يتجمع البشر عليها وحدها , لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلإٍ ومرعى وقطيع وسياج.**

**والمؤمن ذو نسب عريق , ضارب في شعاب الزمان , إنه واحد من ذلك الموكب الكريم , الذي يقود خطا ذلك الرهط الكريم: نوح , وإبراهيم , وإسماعيل , وإسحاق , ويعقوب , ويوسف , وموسى , وعيسى , ومحمد عليهم الصلاة والسلام....) ([[7]](#footnote-7))**

**\*\*\*\***

## **عودٌ للآيات**

**{ ولقد عَلِمْتُمُ} معناه: عَرَفْتُمْ، واستعمال العلم الذي هو معرفة الشئ بحقيقته هنا هو للدلالة على كمال تصورهم لما جرى في هذه القصة،ويؤيده التأكيد ب (اللام وقد). و{اعْتَدَوْا} معناه تجاوزوا الحد، و{فِي السَّبْتِ} معناه في يوم السبت، ويحتمل أن يريد في حكم السبت (أي ما حرمه الله عليهم من الصيد والعمل يوم السبت).**

**وقصة اعتدائهم فيه، أن الله عز وجل أمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة، وعرفه فضله، كما أمر به سائر الأنبياء، فذكر موسى عليه السلام ذلك لبني إسرائيل عن الله تعالى وأمرهم بالتعبد فيه، فأبوا وتعدوه إلى يوم السبت، فأوحى الله إلى موسى أن دعهم وما اختاروا من ذلك، وامتحنهم فيه بأن أمرهم بترك العمل وحرم عليهم صيد الحيتان، وشدد عليهم المحنة بأن كانت الحيتان تأتي يوم السبت حتى تخرج إلى الأفنية.**

**وكان أمر بني إسرائيل ببلدة على البحر، فإذا ذهب السبت ذهبت الحيتان فلم تظهر إلى السبت الآخر، فبقوا على ذلك زمانا حتى اشتهوا الحوت، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتا بخزمة، وضرب له وتدا بالساحل، فلما ذهب السبت جاء وأخذه، فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع، وقيل بل حفر رجل في غير السبت حفيرا يخرج إليه البحر، فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفير، فإذا رجع البحر ذهب الماء من طريق الحفير وبقي الحوت، فجاء بعد السبت فأخذه، ففعل قوم مثل فعله، وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية، وباعوه في الأسواق، فكان هذا من أعظم الاعتداء، وكانت من بني إسرائيل فرقة نهت عن ذلك فنجت من العقوبة، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه، فقيل نجت مع الناهين، وقيل هلكت مع العاصين.**

**و{كُونُوا} لفظة أمر، وهو أمر التكوين، كقوله تعالى لكل شيء: {كُنْ فَيَكُونُ }النحل: 40، مريم: 35، يس: 82، غافر: 68).**

**و{خاسِئِينَ} معناه مبعدين أذلاء صاغرين، كما يقال للكلب وللمطرود اخسأ.**

**ورُوي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط وردّت أفهامهم كأفهام القردة، والأول أقوى، والضمير في «جعلناها»: يحتمل العود على المسخة والعقوبة، ويحتمل على الأمة التي مسخت، ويحتمل على القردة، ويحتمل على القرية إذ معنى الكلام يقتضيها، وقيل يعود على الحيتان، وفي هذا القول بُعد.**

**والنَّكال: الزجر بالعقاب، والنَّكَل والأنكال: قيود الحديد، فالنَّكال عقاب يَنْكَل ( أي ينزجر) بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل.**

 **قال السدي: ما بين يدي المسخة: ما قبلها من ذنوب القوم، وَما خَلْفَها: لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب، وهذا قول جيد، وقال غيره: «ما بين يديها» أي من حضرها من الناجين، {وَما خَلْفَها} أي لمن يجيء بعدها.**

**{وَمَوْعِظَةً} داعية اتعاظٍ واعتبار، {لِلْمُتَّقِينَ} معناه للذين نهوا ونجوا، وقالت فرقة: معناه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، واللفظ يعم كل متقٍ من كل أمةٍ. انتهى ([[8]](#footnote-8))**

**فهذه إشارة تذكيرٍ مجملة في سياق خطاب عام مجمل لبني إسرائيل وطريق سيرهم الطويل ومماطلتهم المستمرة في قضية الإيمان. وقد وردت هذه القصة كاملةً بالتفصيل في سورة الأعراف لما يقتضيه المقام هناك من نقاش محدد ومفصل لمخازيهم وفضائحهم، ولأن معركة الإيمان والجدال بين محمد صلى الله عليه وسلم وبينهم قد اشتدت فوجب اشتداد المقام وتطرقه للتفصيل في سورة الأعراف في قوله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)}.**

**قال الفخر الرازي: المقصود من ذكر هذه القصة أمران.**

**الأول: إظهار معجزة محمد عليه السلام فإن قوله: { ولقد عَلِمْتُمُ} كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه السلام، فلما أخبرهم محمد عليه السلام عن هذه الواقعة مع أنه كان أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه عليه السلام إنما عرفه من الوحي.**

**الثاني: أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول لهم: أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم، ونظيره قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47)} (النساء: 47).([[9]](#footnote-9))**

**\*\*\***

**أقول: للمفسرين هنا كلام كثير لا طائل تحته عن مدة مسخهم، وحال مسخهم، وهل للممسوخ ذرية أم لا؛ في تكلفٍ ظاهرٍ على الحكمة والهدف العام والعبرة من وراء هذه القصة. ومثل ذلك يقال في قصص القرآن عامةً؛ إذ أن سياق القصة القرآنية دائما ما يفي بحاجة العبرة والعظة والاحتجاج والفائدة المحضة بغير تكلف ما لا فائدة في الخوض فيه. يقول ابن كثير في مقدمة تفسيره: ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. انتهى.**

**فما اوجزه الله تعالى وسكت عنه في كتابه فقطعا لا فائدة فيه كما قال تعالى شأنه: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)} (هود: 120) فقوله تعالى: {وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ} أى في هذه السورة، أو في هذه الأنباء وهو أصح عندي.أى أن الحق والنافع والمفيد ما ذكره الله تعالى وحسب؛ بدلالة ’’ ال’’ التي تفيد الحصر والقصر.**

**\*\*\*\***

**روي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط، وجعلت أفهامهم كأفهام القردة. ولم يقله غيره من المفسرين، إلا ما كان من الشيخ محمد عبده وتفسير المنار حيث عرض لهذا الرأى وأخذ ينتصر له بما لا طائل تحته، فراجعه مشكورا. وهذا الرأى مردود لأن مسخ القلوب نقل لللآية من معناها الظاهر إلى مجازٍ غريب لا يساعده الفهم أصلاً، ثم ما معنى مسخ القلوب وجعل أفهامهم كالقردة، وما النكال في ذلك؟ وخصوصاً أن من البشر من هو في فهمه أقل من القرود وليس الأمر نكالا لهم؛ بل هو من قدر الله تعالى وتوزيعه رزقه بين خلقه.**

**فهذا مثال للتأويل المردود الذي طالما نتحدث عنه في تدبر كتاب الله تعالى، وقد توسع بمثله الأستاذ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا في تفسير المنار حتى أنكروا بتأويلهم ذاك جملةً من المعجزات والخوارق التي تقع في إطار جواز العقول، ولا تُنكَر على القدرة الإلهية، كفعلهم –مثلاً- بتأويل الطير الأبابيل في سورة الفيل، والعصف الماكول بأنها طيور تحمل مرض الجدري small box، وهذا فرار من ظاهر وحقيقة النص بغير داعٍ، فلا ينكر العقل قدرة الله تعالى، كما أن مثل ذلك التأويل لا يتناسب مع العقل عند التأمل...! فهذه اللمحة إنما هى للإشارة إلى بعض ضوابط تدبر كتاب الله تعالى.**

**يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3979 حين حديثه عن تأويل المدرسة العصرانية العقلانية التي يمثلها الشيخ محمد عبده للخوارق وتفسيرها القرآن على أساس عقلي مبالغ فيه؛ يقول رحمه الله:**

**إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية، لعل هنا مكان تقريرها.. إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة. لا مقررات عامة.، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص.**

**بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا. فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكوّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا فإذا قررت لنا أمرا فهو المقرر كما قررته! ذلك أن ما نسميه «العقل» ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشري المحدود، وتجاربنا البشرية المحدودة.**

**وهذا العقل في النهاية محدود بحدود وجودنا البشري. وهذا الوجود لا يمثل الحق المطلق كما هو عند اللّه تعالى.**

**والقرآن صادر عن هذا الحق فهو الذي يحكمنا. ومقرراته هي التي نستقي منها مقرراتنا العقلية ذاتها. ومن ثم لا يصلح أن يقال: إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله - كما يرد كثيرا في مقررات أصحاب هذه المدرسة. وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة. ولكن معناه أن العقل ليس هو الحكم في مقررات القرآن. ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى..ا.ه. بتصرف يسير.**

**في قوله تعالى {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)} [البقرة: 66] يتمحض غرض من أغراض القصص القرآني العظيم الذي يسير بالموعظة والتقويم لمنهاج المتقين المؤمنين في كل وقتٍ وحين.**

**لقد حق على (أصحاب السبت) جزاء النكول عن عهدهم مع الله، والنكوص عن مقام الإنسان ذي الإرادة. فانتكسوا بهذا إلى عالم الحيوان والبهيمة، الحيوان الذي لا إرادة له، والبهيمة التي لا ترتفع على دعوة البطون! انتكسوا بمجرد تخليهم عن الخصيصة الأولى التي تجعل من الإنسان إنساناً. خصيصة الإرادة المستعلية المستمسكة بعهد الله.**

**قال القفَّال رحمه الله: النكال هو العقوبة الغليظة الرادعة للناس عن الإقدام على مثل تلك المعصية، وأصله من المنع والحبس، ويقال للقيد النكل، وللجام الثقيل أيضا نكل لما فيهما من المنع والحبس، ونظيره قوله تعالى: {إن لدينا أنكالا وجحيما} (المزمل: 12)، والمعنى هنا: أنا جعلنا ما جرى على هؤلاء القوم عقوبةً رادعةً لغيرهم أي لم نقصد بذلك ما يقصده الآدميون من التشفي لأن ذلك إنما يكون ممن تضره المعاصي وتنقص من مُلكه وتؤثر فيه، وأما نحن فإنما نعاقب لمصالح العباد فعقابنا زجرٌ وموعظة للمؤمن عن سبيل المجرمين، وللمجرم ببيان حال المجرمين وعقابهم.**

 **قال الرازي: اليسير من الذم لا يوصف بأنه نكال حتى إذ عظم وكثر واشتهر، يوصف به وعلى هذا الوجه أوجب الله تعالى في السارق المصر القطع جزاءً ونكالا، وأراد به أن يفعل على وجه الإهانة والاستخفاف، فهو بمنزلة الخزي الذي لا يكاد يستعمل إلا في الذم العظيم. ([[10]](#footnote-10))**

**وللعلامة ابن القيم تأمل طريف في كتابه الماتع إغاثة اللهفان يقول فيه:**

**أن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على إباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد. قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه..**

 **إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وتعظيم حرماته والوقوف عندها، ليس المحتال على إباحة محارمه وإسقاط فرائضه.**

**ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى عليه السلام وكفراً بالتوراة، وإنما هو استحلال تأويلٍ واحتيال، ظاهره ظاهر الاتقاء، وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قردة، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة. فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته، مسخهم الله تعالى قردة، يشبهونهم في بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقاً. ([[11]](#footnote-11))**

**\*\*\***

## **لمحة بلاغية في قوله تعالى { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.**

**الأمر هنا أمر تكوينٍ بمعنى {كن فيكون}؛ وليس أمر تشريع، يطلب منهم فعله.**

**قال ابن الحاجب في مختصره الكَبِيرِ المسمى ب «منتهى السَّول والأمل في عِلمَي الأصول والجدل»: صيغةُ: افعل ( الأمر)، وما في معناها قد صَحَّ إِطلاقها بإزاء خمسةَ عَشَرَ محملاً.**

**الوجوبُ: ومثاله {أَقِمِ الصَّلاةَ} (الإسراء: 78).**

 **والنَّدْبُ: {فَكاتِبُوهُمْ} (النور: 33).**

**والإِرشادُ: {وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ} (البقرة: 282).**

 **والإِباحةُ: {فَاصْطادُوا }(المائدة: 2).**

**والتأديب: «كُلْ مِمَّا يَلِيكَ».**

**والامتنانُ: {كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} (الأنعام: 142).**

**والإِكرامُ: {ادْخُلُوها بِسَلامٍ }(ق: 34).**

 **والتَّهديد: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} (فصلت: 40).**

 **والإِنذار:{تَمَتَّعُوا} (إبراهيم: 30).**

 **والتكوين والتسخير والخلق: {كُونُوا قِرَدَةً} (الأعراف: 166).**

 **والإِهانة والسخرية:{كُونُوا حِجارَةً} (الإسراء: 50).**

 **والتَّسويةُ بين شيئين: {فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا} (الطور: 16).**

 **والدعاءُ والرجاء:{اغْفِرْ لَنا} (آل عمران: 147)**

**وكمالُ القدرة: {كُنْ فَيَكُونُ} (يس: 82).**

**و التعجيزِ: {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ } (هود: 13).**

**(وأزيد- جامعه: أنها تأتي للتقرير وإلزام الخصم أيضا: {فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا (93)} (آل عمران: 93).**

**قال ابن الحاجِبِ: وقد اتفق العلماء على أنها مجازٌ فيما عَدَا الوُجُوبَ والنَّدْبَ والإِباحةَ والتهديدَ، ثم الجمهورُ على أنها حقيقةٌ في الوجوب. انتهى. ([[12]](#footnote-12))**

**أقول: كل ذلك يدل على ضرورة تدبر سياق الخطاب في القرآن الكريم، وهو الذي يضع ومعه قرائن النص مفهوم الأمر فيه، وهو نموذج واحد من نماذج لغة القرآن الخصبة التي توجب على المؤمن المتدبر لكتاب الله تعالى إعمال كافة ملكاته لدرس كلام الله.**

**\*\*\***

## **قصة البقرة**

**هنا يبتدأ الحديث عن قصة بقرة بني إسرائيل؛ والتي بني عليها اسم السورة الكريمة، وما ذلك إلا لأن تلك القصة مثالٌ صارخ لتعنت وزيغ ومماطلة اليهود، وتحايلهم للفساد، وتملصهم من مسئولياتهم أمام الله عز وجل.**

**وفي نهاية هذا الدرس العميق عن أصحاب السبت تجيء قصة «البقرة».. تجيء مفصلة وفي صورة حكاية، لا مجرد إشارة كالذي سبق، ذلك أنها لم ترد من قبل في السور المكية، كما أنها لم ترد في موضع آخر.**

**فالبقرة وقصتها هنا رمز للزيغ والضلال والتبجح اليهودي بالكفران وسوء الأدب مع أنبياء الله ورسله إليهم. كما ظل العجل رمزا لكفرهم وشركهم وصدهم عن السبيل.**

**قال تعالى:**

**{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) } ( سورة البقرة)**

**وهذا موقف آخر من مواقف العنت والعناد، من هؤلاء القوم مع الله، ومع آيات الله، حيث لا تزيدهم الآيات إلا كفرا، ولا يزيدهم النور إلا عمى.**

**لقد قتل في القوم قتيل فادّارءوا فيه: أي اختلفوا في التعرف على قاتله، إذ رمى بعضهم بعضا به، ودفع بعضهم بعضا إلى موقف الاتهام فيه.**

**ولجأ القوم إلى موسى يسألونه آية تنطق القتيل باسم قاتله، وهم يريدون بهذا أولا وقبل كل شىء، امتحانا لموسى، واستيقانا من دعواه أنه رسول الله، وكليم الله!.**

**فحتى في محنتهم وحيرتهم يستغلون المواقف من أجل اللجاجة في الإيمان وزعزعة اليقين باختباراتهم الخائبة لرسول الله موسى عليه السلام.**

**وتجىء آية الله من وراء ما يقدّر القوم، فتدور لها رءوسهم، وتضطرب لها عقولهم.**

**ينقلب السحر على الساحر. وامتحانٌ بامتحانٍ. فقط لبيان إمعان القوم في الجدل العقيم والتشكك والتشكيك في الحق، ورفض الطاعة والانقياد لله ورسوله.**

**يقول لهم موسى ما أمره الله به: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» ! ويذهل القوم ويدهشون! ما للقتيل وقاتله وهذه البقرة التي يؤمرون بذبحها؟ المسافة كما تبدو في ظاهر الأمر بعيدة جدا، بين السؤال وجوابه، وبين المطلوب والأسباب الموصلة إليه! ثم إنهم طلبوا آية، فهل في ذبح بقرة من البقر آية؟.**

**والأمر هو اختبار لقوة اليقين في الله تعالى وطاعته وطاعة رسوله، ولكن لسوء أدبهم وسخف عقولهم وماديتهم التي أهلكتهم يرى القوم كأن موسى يعبث بهم، فيقولون له: «أَتَتَّخِذُنا هُزُواً» ؟**

**يجيبهم موسى عليه السلام في قصتنا قائلاً: «أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» - إن العبث لا يكون إلا عن جهلٍ، ولا يقع إلا من جهّال، وهو نبى معصوم، توجهه السماء، فلا يضل ولا يهزل!!**

**ولا يجد القوم في هذا مقنعا، ويذهب بهم جهلهم وحمقهم إلى أن البقرة المطلوبة ليست مجرد بقرة، وإنما هى على أوصاف نادرة لا تتحقق إلا فيها، حتى يمكن أن تتخلّق منها الآية التي طلبوها.. هكذا فكروا وقدّروا.**

**وهنا يقول ابن عباس: أنهم تشددوا فشدد الله عليهم. ولو ذبحوا أي بقرة لتَمَّ لهم ما يريدون، ولكنه التعمق في التفاصيل بما لا طائل تحته إلا أن يذكروا ما سكت عنه الشرع فيشدد الله عليهم،**

**«قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ؟» لقد جمعوا بين الجهل والسفاهة، فأبوا أن يقولوا «ادع لنا ربنا» وقالوا: «ادْعُ لَنا رَبَّكَ» وكأنه ربّ موسى وليس رباً لهم! وهذا الجحود والسفاقة في خلق القوم تتكرر مراراً عند القوم حتى ارت علما عليهم ألا تسمع قولهم {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24)} (المائدة: 24).**

 **ومع هذا فقد أجابهم الله إلى ما طلبوا: «قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ، عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ» أي هى من أواسط البقر في سنها، ليست كبيرة ولا صغيرة.. والفارض هى التي ولدت مرات كثيرة، والبكر، التي لم تلد بعد.. فهى وسط بين هذين الطرفين.**

**وفي قوله تعالى: «فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ» تنبيه لهم.. إن كانوا يعقلون..**

**أن ينتهوا عند هذا، وألا يطلبوا وراء هذه الصفات صفات أخرى..**

**ولكن يأبى القوم إلا أن يلبسوا بقرتهم أثوابا لا تُرى على كثير من البقر..**

**فعادوا إلى موسى يسألونه: «ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها» وفي كل مرة يقولون «ربّك» ولا يقولون «ربّنا» ويجيبهم الرحمن الرحيم إلى ما طلبوا: «إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» والأصفر في أزهى درجاته يُدعى فاقعاً، كما أن الأحمر الزاهي يقال له قاني، والأبيض ناصعا، والأسود فاحما. ولم يدعهم في هذه المرة إلى أن يفعلوا ما يؤمرون، بل تركهم وما تختار لهم أنفسهم من ركوب هذا المركب الخشن، حتى تحفي أقدامهم وتنهدّ قواهم! ويعودون إلى موسى مرة أخرى: «ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا» !! والبقر هو البقر.. يشبه بعضه بعضا، ولكنهم يريدونها بقرة لا شبيه لها.. بقرة خلقها الخالق لهذا المطلب، ولم يخلق مثلها..منتهى التنطع والمماطلة!**

**ويجيئهم أمر الله: «إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ، وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ، مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها» أي إنها بقرة لم يذللها العمل، بل هى بقرة بريّة مرسلة، لم تستخدم في حرث الأرض، ولا في سقى ما يحرث من الأرض، ثم هى بريئة من كل عيب يدخل عليها في أعضائها، أو في لونها: «مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها».**

**وهنا يجد القوم أن بقرتهم قد لبست أوصافا لا تكاد تقع إلا في القليل النادر، فيجدّون في البحث عنها، وهم سعداء بهذا الجري اللاهث وراءها..**

**ويلقون إلى موسى بتلك الفرحة التي ملأت صدورهم، قبل أن يعثروا عليها «الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ» !! الآن فقط! كأنه إنما كان في كل ما جاءهم به من قبل عن هذه البقرة وغيرها، ليس مما هو حق، بل باطل وعبث! يا لبجاحة سوء الأدب!**

**«فذبحوها، وما كادوا يفعلون» أي أنهم لم يكادوا يجدون بقرة على تلك الصفة، أو أنهم حين وجدوها صغرت في أعينهم، فكادوا ينصرفون عنها، ويطلبون أوصافا أخرى لبقرة غيرها! فانظر كيف يستبدّ بهم اللجاج والعناد، وكيف يوردهم لجاجهم وعنادهم موارد التّيه والضلال، ولو أنهم امتثلوا ما أمروا به من أول الأمرلكفوا أنفسهم مئونة هذا العناء.**

**قال صاحب الكشاف: وقوله تعالى: {وَما كادُوا يَفْعَلُونَ} استثقال لاستقصائهم، وأنهم لتطويلهم المفرط. وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل: ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة في ظهور القاتل». ([[13]](#footnote-13))**

**فالقوم قد وقعت بينهم جريمة نكراء وهم يتدافعون التهم فيها بينهم.**

**وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم في قوله تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نفساً} مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد في بره وخيره أو فُجره وضلاله.**

**وأسند القتل- أيضا- إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوي، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل، وكثيرا ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب للتنبيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف في الانحراف والضلال.**

**وقوله تعالى: {فَادَّارَأْتُمْ فِيها} أي تدارأتم التهمة فيها ( من الدرء وهو الدفع) بمعنى دفع كل منهم التهمة على غيره، أى تدافعتم الجناية عن أنفسكم.**

**وقوله تعالى: {وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} معناه: والله- تعالى- مظهر ومعلن وفاضح ما تسترون. ( وهذه الجملة الكريمة {وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} معترضة بين قوله تعالى {فَادَّارَأْتُمْ} وبين قوله تعالى: {فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها}، وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقي سينكشف أمره لا محالة..) ([[14]](#footnote-14))**

**وإذ يذبحون البقرة يفتحون أعينهم وأفواههم إلى موسى قائلين له: ماذا بعد ذلك؟ ويجيئهم الجواب: «فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى، وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».**

**ويُضرب الميت ببعض لحم البقرة، فتعود إليه الحياة، وينطق باسم قاتله، ثم يعود إلى عالم الموتى، إلى يوم يبعثون! بقدرة الله قام هذا الميت، وليس للبقرة ولا لذبحها وضربه ببعض لحمها علاقة بهذه الحياة التي عادت إليه، فقدرة الله فوق الأسباب جميعها، ولكن مطلوب من الناس أن يعملوا، وأن يتحركوا إلى الغايات التي ينشدونها، وأن يعلموا أن الأسباب الظاهرة التي يتخذونها طريقا إلى المسببات، ليست هى العاملة في النتائج التي يحصلون عليها، فقد يقدّر المرء أسبابا يراها منتجة لثمرة بعينها، فيقع الأمر على خلاف ما قدَّر.. فالتلازم بين الأسباب والمسببات مرهون بإرادة الله، وبقدرة الله.**

**وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها، حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها في الذكر ليعدد على بني إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها، فتتقبلها بشغف واهتمام.**

**قال صاحب الكشاف: فإن قلت فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يُقدَّم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعا لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين.**

**فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال لأمر الله وما يتبع ذلك.**

**والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت القصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: {اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها} حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيته، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة».انتهى.**

**قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: «وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل- مع أنه، ليس أول قتيل طل دمه في الأمم- إكراما لموسى- عليه السلام- أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم، وبمرأى ومسمع منه، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة في إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله- تعالى- هذا الدم ويبين سافكه- لضعف يقين القوم برسولهم موسى- عليه السلام- ولكان ذلك مما يزيد شكهم في صدقه فينقلبوا كافرين، فكان إظهار القاتل الحقيقي إكراما من الله تعالى- لموسى، ورحمة بالقوم لئلا يضلوا» انتهى ([[15]](#footnote-15)).**

**هذا ولصاحب المنار- رحمه الله- رأى في تفسير الآية الكريمة، فهو يرى أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: {كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى} حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقي بعد الموت.**

**فقد قال في تفسيره: ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أى يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى:{ وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً}، وقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ}.فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين...([[16]](#footnote-16))**

**والذي أراه أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: {كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى} الإحياء الحقيقي للميت بعد موته، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف؛ كما مر في شبيه ذلك عن الأستاذ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا آنفا، فما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن الكريم لا إجمالا ولا تفصيلا، ولا تصريحا ولا تلميحا، لأن قوله تعالى: { كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى} ظاهر كل الظهور، في أن المراد بالإحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل، وإحياؤهم رد أرواحهم بعد موتهم، وليس هناك نص صحيح يُعتمد عليه في مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد أيضا قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأملٍ. وما دام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالةً واضحة، ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى الأحياء من الناس، وبإحياء الموتى تشريع العقوبات صونا لدماء الأحياء منهم والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال {وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواءٍ أو تعمية.**

**ثانيا: تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى، كما قال المفسرون، يؤدى إلى غرس الإيمان بصحة البعث في القلوب، لأن المعنى عليه، كهذا الإحياء العجيب- وهو إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله- يحيى الله الموتى بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم، فيكون إثباتا للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر.**

**ثالثا: قوله تعالى بعد ذلك: {وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} قرينة قوية على أن المراد بالإحياء، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد ب {آياتِهِ } في هذا الموضع، - كما قال المفسرون- الدلائل الدالة على عظم قدرته- تعالى- وذلك إنما يكون في خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة والتي ليست في طاقة البشر، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء. ([[17]](#footnote-17))**

**وقد أسهبت في هذه النقطة لبيان أن القرآن بتكوينه يوجِّه المتدبر والمفسر لظاهر معانيه دون تكلُّف تأويلٍ غير صحيحٍ لا يجرنا سوى لعقلانيةٍ كاذبة لا طائل تحتها.**

**\*\*\***

 **وقد ورد في هذه القصة روايات كثيرة رويت عن بني إسرائيل بغير سند يطمأن إليه، وما جاء في كتاب الله تعالى فيه كل الخير وكفاية.**

**يقول محمد عبده رحمه الله: إنه يجب الاحتراس في قصص بني إسرائيل وغيرهم من الأنبياء وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا: إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الأزمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحري والبحث واستخراج الآثار، فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يوثق بها لحسن قصدهم، ولكننا لا نعول على ذلك بل ننهى عنه، ونقف عند نصوص القرآن لا نتعداها، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته.([[18]](#footnote-18))**

**وقال الإمام السعدي رحمه الله في تفسيره:**

**واعلم أن كثيرا من المفسرين رحمهم الله، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم: ’’حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ’’**

**والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم: ’’لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ’’فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق. ([[19]](#footnote-19))**

## فصل: في الأسلوبية والسياق البلاغي الرائع لقصة البقرة.

**وفي هذه القصة القصيرة- كما يعرضها السياق القرآني- مجال للنظر في جوانب شتى.. جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة. وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة.**

**ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقاً مع السياق..**

**إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان!**

**وأخيراً نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق..**

**هذه قصة قصيرة نبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه. نحن لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم.**

**ثم تتابع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه، فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسى وربه على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله، ثم يعود إليهم بالجواب.. ولكن سياق القصة لا يقول: إنه سأل ربه ولا إن ربه أجابه.. إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل! ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة- كما بوغت بها بنو إسرائيل- انتفاض الميت مبعوثا ناطقاً، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة! ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل.([[20]](#footnote-20))**

**قال الأستاذ محمد عبده: جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يُسبق إليه ولم يُلحق فيه، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين، ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا، ويهز النفس للاعتبار هزا. وقد راعى في قصص بني إسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله - تعالى - إياها، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم، وينقلبون إلى كفرهم.**

**كان في الآيات السابقة يذكر النعمة، فالمخالفة، فالعقوبة، فالتوبة، فالرحمة كالتفضيل على العالمين، وأخذ الميثاق، والإنجاء من فرعون، وما كان في أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجملنا، وأوضحنا من قبل وفصلنا.**

 **وفي هذه القصة اختلف النسق فذكر المخالفة بعد في قوله: {وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها} ثم المنة في الخلاص منها في قوله: {فقلنا اضربوه ببعضها}... إلخ، وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص، وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها حيث لم يسبق في الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة، فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الأمر، والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في الأنفس إلى معرفة السبب، فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه. إذ الحكمة في أمر الله أمةً من الأمم بذبح بقرة خفية لجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها، لا سيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب. وقد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر.([[21]](#footnote-21))**

**قال: وقد وردت الأسئلة والأجوبة في هذه القصة مفصولة غير موصولة بحرف عطف، وذلك ما يقتضيه الأسلوب البليغ، فقد تقرر في البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال، كان ما يأتي بعده مما يصح أن يكون جوابا للسؤال المقدر مفصولا عما قبله، وقوله: {وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة} يشعر بسؤال، كأنه قيل: ماذا كان منهم بعد الأمر؟ فأجيب عنه بقوله {قالوا أتتخذنا هزوا} وهذا يشعر بسؤال أيضا، كأنه قيل: ماذا قال موسى إذ قالوا ذلك؟ فأجاب: {قال أعوذ بالله}... إلخ. وهكذا ورد غيرها من المراجعات في التنزيل، كما ترى في قصة موسى وفرعون.([[22]](#footnote-22))**

**يقصد قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)} (الشعراء: 23 – 33). وهو من براعة ودقة وإيجاز الأسلوب القرآني البلاغي العظيم، فتأمله فإن القرآن العظيم قد اختُصَّ بتهذيب الأساليب العربية البليغة الرصينة وخلق لغته الخاصة الرائعة المعجزة التي لا يتذوقها إلا المتأملون المتدربون على بلاغة العرب وفصاحتهم.**

**\*\*\*\***

## ما يؤخذ من قصة البقرة من عظاتٍ وعِبر.

**يقول د/ سيد طنطاوي في تفسيره مع زيادة:**

**اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية من ذلك:-**

**1- دلالتها على ما جُبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة، وسوء أدب مع مرشديهم، وإحفاء في الأسئلة بلا موجب، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل، ومماطلة في الانصياع للتكاليف، وانحراف عن الطريق المستقيم. إنها ووقاحة اليهود المعتادة مع رسول الله موسى عليه السلام، ومع كل أنبياء الله تعالى ورسالاته كما قال تعالى فيما يأتي في السورة بعد:{أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88) } (البقرة: 87، 88)**

**2- دلالتها على صدق النبي صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلغه عن ربه، فقد أخبر في هذه القصة الواقعية التي لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته صلّى الله عليه وسلّم كما أنها تدل على صدق نبوة موسى- عليه السلام- وأنه رسول من رب العالمين.**

**3- دلالتها على أن التنطع في الدين، والإلحاف في المسألة يؤديان إلى التشديد في الأحكام، لأن بني إسرائيل لو أنهم أول الأمر عمدوا إلى ذبح أى بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.**

**أخرج ابن جرير- رحمه الله- عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم. لكنهم شددوا فشدد الله عليهم».**

**وقد أدى بهم هذا التنطع والتشديد إلى تضييق دائرة اختيارهم، وتكثير للشروط التي يجب توافرها في البقرة المطلوبة، وذلك لتأديبهم على مما طلتهم وبلادة عقولهم، وسوء تلقيهم للشريعة بأنواع من التقصير عملا وشكرا وفهما، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح بقرة ما، وأن ما أمروا به بعد ذلك من كونها صفراء سالمة من آثار الخدمة ليس من باب تأخير البيان عن وقت الخطاب، وإنما هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم.**

**وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهى عن كثرة السؤال، وإلى تجنب ما وقع فيه هؤلاء {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102)} (المائدة: 101، 102)، وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا. (رواه مسلم وغيره) قال النووي: أَيْ: الْمُتَعَمِّقُونَ , الْغَالُونَ , الْمُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.**

**قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ’’ إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ ’’ ([[23]](#footnote-23)). وفي الباب عن أبي هريرة عند البخاري ولفظه: ’’إن الدِّين يُسْرٌ، ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدْوة والرَّوْحة وشيءٍ من الدُّلْجةِ’’.**

**وعن ابن عباس: ’’إياكم والغلوَّ في الدِّين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغُلُوِّ في الدين’’. وإسناده صحيح على شرط مسلم.**

**وعن بريدة الأسلمي: ’’عليكم هدياً قاصداً، عليكم هدياً قاصداً، عليكم هدياً قاصداً، فإن من يشادَّ هذا الدين يغلبه’’. وإسناده صحيح. ([[24]](#footnote-24))**

**وفي الحديث الشريف أيضاً: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم».**

**قال صاحب المنار: «وقد امتثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين عندهم فطريا وحنيفياً سمحا، ولكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاما استنبطها باجتهاده، حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته وملت وألقته وتخلت».**

**4- قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة تعليقا على سوء أدب اليهود بقولهم لرسولهم عليه السلام { أتتخذنا هزوا}:**

**(وقد نبهت الآية الكريمة، على أن الاستهزاء بأمرٍ من أمور الدين جهل ٌكبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه في أسوأ العواقب، ويقذف به في عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثالٍ يضربونها في مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أُنزل القرآن الكريم ليُتلَى بتدبرٍ وخشوع، وليُعمَل به بتقبل وخضوع) ([[25]](#footnote-25))**

**أقول: بل إن الاستهزاء العمد أو حتى الغير عمد على سبيل المزح واللعب بدين الله تعالى كفرٌ بصريح كتاب الله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)} (التوبة: 65، 66).**

 **5- قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: وفي هذه القصة أنواع من العبر منها:-**

**(أ) أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، فإن القوم لما قال لهم نبيهم إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قابلوا هذا الأمر بقولهم: {أَتَتَّخِذُنا هُزُواً } فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا «أتتخذنا هزوا». وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك فلما قال لهم: {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ } وتيقنوا أن الله- تعالى- أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.**

**ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: {الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ} فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك رِدة وكفر ظاهر، وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً } فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبوح فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة.**

**قال الإمام بن جرير: «وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى «الآن جئت بالحق» وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى- عليه السلام- أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من هفواتهم».**

**(ب) ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.**

**(ج) ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدى، وإعذارا وإنذارا للضال:**

**(د) ومنها: الإخبار عن قساوة هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.**

**قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول «إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى- الميت فأخبرهم يقاتله، أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق».**

**(هـ) ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعا وقدرا، فإن القاتل قصد ميراث المقتول، ودافع القاتل عن نفسه، ففضحه الله- تعالى- وهتكه، وحرمه ميراث المقتول.**

**(و) ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة من أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل في البلادة.**

**ثم قال الإمام ابن القيم في ختام حديثه عن هذه القصة: والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي، لا يصلح أن يكون إلها معبودا من دون الله، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل»**

 **5- دلالتها على قدرة الله- تعالى- فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة- دليل على قدرة الله- تعالى- على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته- تعالى- التي لا يدرون كيف تعمل، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها، وصدق الله حيث يقول: {فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.**

**وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بني إسرائيل برذيلة التنطع في الدين، والتعنت في الأسئلة، والإساءة إلى نبيهم- عليه السلام- وعدم اعتبارهم بالعظات والمثلات لقساوة قلوبهم، وسوء طباعهم، وانطماس بصيرتهم {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ}.انتهى.**

**\*\*\*\***

# { ثم قست قلوبكم من بعد ذلك...}

**ثم بيَّن القرآن الكريم، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التي تزلزل المشاعر، وتهز القلوب، وتبعث في النفوس الإيمان، لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل الصلدة، فقال تعالى: { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ، وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ، وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)} ( سورة البقرة)**

**قال القفَّال: يجوز أن يكون المخاطبون بقوله: {ثم قست قلوبكم} هم أهل الكتاب الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم، فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب، وهذا أولى لأن قوله تعالى: {ثم قست قلوبكم} خطاب مشافهة، فحمله على الحاضرين أولى، ويحتمل أيضا أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام خصوصا، ويجوز أن يريد من قبلهم من سلفهم.**

**وجيء ب(ثم) التي هي للترتيب والتراخي. لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات..**

**وقوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ ذلِكَ} فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم، بعد توالى النعم، وتكاثر المعجزات. وقوله تعالى: {من بعد ذلك} يحتمل أن يكون المراد من بعد ما أظهره الله تعالى من إحياء ذلك القتيل، فعنده قال تعالى واصفا لهم: إنهم بعد ظهور مثل هذه الآية ( في قصة البقرة وإحياء الله تعالى القتيل) قست قلوبهم. ويحتمل أن يكون ذلك إشارةً إلى جميع ما ذكر الله سبحانه من النعم العظيمة والآيات الباهرة التي أظهرها لبني إسرائيل عامة، فإن أولئك اليهود بعدُ ما تركوا العناد والاعتراض على موسى عليه السلام، وقد كان الأولى أن تلين قلوبهم بتلك المعجزات والآيات.**

**{ فهى كالحجارة أو أشد قسوة} فشبه- سبحانه- قلوبهم بالحجارة في القسوة، لأن صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر، حيث إنها محسوسة لديهم ومتعارفة بينهم ولذا جاء التشبيه بها.**

**قال الفخر الرازي: وكلمة «أو» في قوله تعالى { أو أشد قسوة} فيها من التأويل الصحيح وجوه.**

 **أحدها: أنها بمعنى الواو كقوله تعالى: {وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون }(الصافات: 147) بمعنى ويزيدون، وكقوله تعالى: {ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن }(النور: 31) والمعنى وآبائهن. وكقوله: {أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم} (النور: 61) يعني وبيوت آبائكم. ومن نظائره قوله تعالى: {لعله يتذكر أو يخشى }(طه: 44)، وقوله {فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا} (المرسلات: 5، 6).**

 **وثانيها: أنه تعالى أراد أن يبهمه على العباد فقال ذلك كما يقول المرء لغيره: أكلت خبزا أو تمرا وهو لا يشك أنه أكل أحدهما إذا أراد أن يبينه لصاحبه.**

**وثالثها: أن يكون المراد فهي كالحجارة، ومنها ما هو أشد قسوة من الحجارة.**

**ورابعها: أن الآدميين إذا اطلعوا على أحوال قلوبهم قالوا: إنها كالحجارة أو هي أشد قسوة من الحجارة وهو المراد في قوله: {فكان قاب قوسين أو أدنى} (النجم: 9) أي في نظركم واعتقادكم.**

**وخامسها: أن كلمة «أو» بمعنى (بل) للإضراب وأنشدوا:**

**فو الله ما أدري أسلمى تغولت... أم القوم أو كلٌ إلي حبيب. قالوا: أراد بل كل. وسادسها: أنه على حد قولك ما آكل إلا حلوا أو حامضا أي طعامي لا يخرج عن هذين، بل يتردد عليهما، وبالجملة: فليس الغرض إيقاع التردد بينهما، بل نفي غيرهما. وسابعها: أن «أو» حرف إباحة كأنه قيل بأي هذين شبهت قلوبهم كان صدقا كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين أي أيهما جالست كنت مصيبا ولو جالستهما معا كنت مصيبا أيضا.**

**وإنما وصفها تعالى بأنها أشد قسوة لوجوه.**

**أحدها: أن الحجارة لو كانت عاقلة ولقيتها هذه الآية لقبلنها كما قال: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله} (الحشر: 21).**

 **وثانيها: أن الحجارة ليس فيها امتناع مما يحدث فيها بأمر الله تعالى، وإن كانت قاسية بل هي منصرفة على مراد الله غير ممتنعة من تسخيره، وهؤلاء اليهود مع ما وصفنا من أحوالهم في اتصال الآيات عندهم وتتابع النعم من الله عليهم يمتنعون من طاعته ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه وهو كقوله تعالى: { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} (الأنعام:38- 39)؛ كأن المعنى أن الحيوانات من غير بني آدم أممٌ سُخِّر كل واحد منها لشيء وهو منقاد لما أريد منه وهؤلاء الكفار يمتنعون عما أراد الله منهم.**

**وثالثها: أو أشد قسوة، لأن الأحجار يُنتفع بها من بعض الوجوه، ويظهر منها الماء في بعض الأحوال، أما قلوب هؤلاء فلا نفع فيها البتة ولا تلين لطاعة الله بوجه من الوجوه.**

**وإنما قال تعالى: {أشد قسوة} ولم يقل أقسى، لأن ذلك أدل على فرط القسوة. ووجهٌ آخر وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد قسوة.**

**وقوله تعالى: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ، وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ، وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.**

**ثم إنه سبحانه وتعالى فضَّل الحجارة على قلوبهم بأن بيَّن أن الحجارة قد يحصل منها ثلاثة أنواع من المنافع، ولا يوجد في قلوب هؤلاء شيء من المنافع. فأولها: قوله تعالى: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار} والتفجر هو التفتح بالسعة والكثرة؛ بمعنى وإن من الحجارة ما ينشق فيخرج منه الماء الذي يجري حتى تكون منه الأنهار.**

**وثانيها: قوله تعالى: {وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء}، أي من الحجارة لما ينصدع فيخرج منه الماء، وهؤلاء قلوبهم في نهاية الصلابة لا تندى بقبول شيء من المواعظ ولا تنشرح لذلك ولا تتوجه إلى الاهتداء وقوله تعالى: {يشقَّق} أي يتشقق، فأدغم التاء كقوله تعالى: {يذكَّر} أي يتذكر، وقوله: {يا أيها المزمل}، {يا أيها المدثر} أي المتزمل والمتدثر، وهذه من عادات القرآن اللغوية في تخفيف الألفاظ بالإدغام وهو مما يتوافق مع سلاسة وانسيابية التركيب القرآني ونظامه الموسيقي.**

**وثالث ميزات الحجارة على قلوب هؤلاء: {وإن منها لما يهبط من خشية الله}.**

**واعلم أن فيه إشكالا وهو أن الهبوط من خشية الله صفة الأحياء العقلاء، والحجر جماد فلا يتحقق ذلك فيه، فلهذا الإشكال ذكروا في هذه الآية وجوها.**

**أحدها: قول أبي مسلم المعتزلي خاصة وهو أن الضمير في قوله تعالى: {وإن منها} راجع إلى القلوب، فإنه يجوز عليها الخشية والحجارة لا يجوز عليها الخشية: وقد تقدم ذكر القلوب كما تقدم ذكر الحجارة، أقصى ما في الباب أن الحجارة أقرب المذكورين، إلا أن هذا الوصف لما كان لائقا بالقلوب دون الحجارة وجب رجوع هذا الضمير إلى القلوب دون الحجارة، واعترضوا عليه من وجهين.**

**الأول: أن قوله تعالى: {فهي كالحجارة أو أشد قسوة} جملة تامة، ثم ابتدأ تعالى فذكر حال الحجارة بقوله: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار} فيجب في قوله تعالى: {وإن منها لما يهبط من خشية الله} أن يكون راجعا إليها ( قلت: لأن الحديث متصل عن الحجارة تربطه واو العطف أو الابتداء التي تتصل سياقا بما قبلها).**

**الثاني: أن الهبوط يليق بالحجارة لا بالقلوب، فليس تأويل الهبوط أولى من تأويل الخشية. والوجه الاني في هذا المقطع من الآية: قول جمع من المفسرين: إن الضمير عائد إلى الحجارة، لكن لا نسلم أن الحجارة ليست حية عاقلة، بيانه أن المراد من ذلك جبل موسى عليه السلام حين تقطع وتجلى له ربه، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق فيه الحياة والعقل والإدراك، وهذا غير مستبعد في قدرة الله، ونظيره قوله تعالى: {وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء} (فصلت: 21)، فكما جعل الجلد ينطق ويسمع ويعقل، فكذلك الجبل وصفه بالخشية، وقال أيضا: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله} (الحشر: 21)، والتقدير أنه تعالى لو جعل فيه العقل والفهم لصار كذلك، وروي أنه حن الجزع لصعود رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ( بأحاديث بلغت مقام التواتر المعنوي)، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما أتاه الوحي في أول المبعث وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله سلمت عليه الأحجار والأشجار، فكلها كانت تقول: السلام عليك يا رسول الله، وغير ذلك...**

**قالوا: فغير ممتنع أن يخلق في بعض الأحجار عقل وفهم حتى تحصل الخشية فيه، وأنكرت المعتزلة هذا التأويل ( لعقلانيتهم المتطرفة في إنكار ما لا يستبعده العقل أصلا)، فوجب أن لا يُلتفت إليهم.**

**وثالث الوجوه في الآية: وهو أن الضمير عائد إلى الحجارة، وأن الحجارة لا تعقل ولا تفهم، وذكروا على هذا القول أنواعا من التأويل.**

**الأول: أن من الحجارة ما يتردى من الموضع العالي الذي يكون فيه فينزل إلى أسفل وهؤلاء الكفار مصرون على العناد والتكبر، فكأن الهبوط من العلو جعل مثلا للانقياد، وقوله: {من خشية الله}، أي ذلك الهبوط لو وجد من العاقل المختار لكان به خاشيا لله وهو كقوله: {فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه} (الكهف: 77)، أي جدارا قد ظهر فيه الميلان ومقاربة السقوط ما لو ظهر مثله في حي مختار لكان مريدا للانقضاض.**

**وعلى هذا الوجه تأول أهل النظر قوله تعالى: { تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده} (الإسراء: 44)، وقوله تعالى: {ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض}(النحل: 49) الآية، وقوله تعالى: {والنجم والشجر يسجدان } (الرحمن: 6).**

**الوجه الثاني في هذا التأويل: أن قوله تعالى: {من خشية الله} أي ومن الحجارة ما ينزل وما ينشق ويتزايل بعضه عن بعض، عند الزلازل من أجل ما يريد الله بذلك من خشية عباده له وفزعهم إليه بالدعاء والتوبة. وتحقيقه أنه لما كان المقصود الأصلي من إهباط الأحجار في الزلازل الشديدة أن تحصل خشية الله تعالى في قلوب العباد صارت تلك الخشية كالعلة المؤثرة في حصول ذلك الهبوط، فكلمة «من» لابتداء الغاية فقوله: {من خشية الله}، أي بسبب أن تحصل خشية الله في القلوب.**

 **وأما الوجه الثالث: ما ذكره الجبائي المعتزلي وهو أنه فسر الحجارة بالبرد الذي يهبط من السحاب تخويفا من الله تعالى لعباده ليزجرهم به.**

 **قال: وقوله تعالى: {من خشية الله} أي بخشية الله، أي ينزل بالتخويف للعباد أو بما يوجب الخشية لله، كما يقال: نزل القرآن بتحريم كذا وتحليل كذا أي بإيجاب ذلك على الناس، قال القاضي: هذا التأويل ترك للظاهر من غير ضرورة لأن البرد لا يوصف بالحجارة، لأنه وإن اشتد عند النزول فهو ماء في الحقيقة ولأنه لا يليق ذلك بالتسمية. انتهى كلام الرازي في تفسيره الكبير.**

**قال الواحدي في البسيط: هذا كلام أهل المعاني في معنى خشية الحجارة، والصحيح: أنها تخشى الله حقيقة كما قال مجاهد، ولكنا لا نقف على كيفية ذلك كسجود الجمادات لله تعالى، ذهب كثير من المفسرين إلى أنها تسجد لله تعالى على الحقيقة ولا نقف عليه نحن. ([[26]](#footnote-26))**

**(قلت: في الوجهان الأول والأخير في الآية تكلف ظاهر في التأويل، واحتيال سخيف، واستثقال ما لا يستبعده العقل أبدا؛ بل يقر بقدرة الله تعالى على جعل الجماد واعيا مدركا خاشعا خاشيا ذاكرا لله ومسبحا والله على كل شئٍ قدير، ولكن لما غالى المعتزلة وأمثالهم في عقولهم حاكموا القرآن إلى عقولهم المحدودة فاضطروا إلى تعطيل النصوص بدعوى تعليلها والانخراط من ثَم في مؤامرة التأويل المتعسف لآيات الله تعالى. وقد أطلت النفس مع الفخر الرازي في هذا الموضع لبيان حقيقة التعسف في تأويل العقلانيين لنصوص الكتاب وجنايتهم على الدين، وتمرسهم في إفقاد الإيمان معانيه بالسفسطات الفارغة من التأويلات الباطلة).**

**أما قوله تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون} فالمعنى أن الله تعالى بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم، وحافظٌ لأعمالهم محصٍ لها؛ فهو يجازيهم بها في الدنيا والآخرة وهو كقوله تعالى: {وما كان ربك نسيا} (مريم: 64). وفي هذا وعيد لهم وتخويف كبير لينزجروا.**

**قلت: والملاحظة أنه أسلوب خبري أفاد الوعيد والتخويف، كما قيل في قوله عليه السلام: ’’ إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت’’.**

**وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بما هم أهله. من قساوة القلب وانطماس البصيرة، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت. وبالآيات مهما توالت. والله أعلم.  ([[27]](#footnote-27))**

# { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ...}

**{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)} (البقرة: 75، 77)**

##  في لحُمة الآيات

**اعلم أنه سبحانه لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود إلى ههنا، شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد صلى الله عليه وسلم.**

 **قال القفَّال رحمه الله: إن فيما ذكره الله تعالى في هذه السورة من أقاصيص بني إسرائيل وجوهاً من المقصد، أحدها: الدلالة بها على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عنها من غير تعلم، وذلك لا يمكن أن يكون إلا بالوحي ويشترك في الانتفاع بهذه الدلالة أهل الكتاب والعرب، أما أهل الكتاب فلأنهم كانوا يعلمون هذه القصص فلما سمعوها من محمد من غير تفاوت أصلاً، علموا لا محالة أنه ما أخذها إلا من الوحي. وأما العرب فلما يشاهدون من أن أهل الكتاب يصدقون محمداً في هذه الأخبار.**

**وثانيها: تعديد النعم على بني إسرائيل وما منّ الله تعالى به على أسلافهم من أنواع الكرامة والفضل كالإنجاء من آل فرعون بعدما كانوا مقهورين مستعبدين ونصره إياهم وجعلهم أنبياء وملوكاً وتمكينه لهم في الأرض وفرقه بهم البحر وإهلاكه عدوهم وإنزاله النور والبيان عليهم بواسطة إنزال التوراة والصفح عن الذنوب التي ارتكبوها من عبادة العجل ونقض المواثيق ومسألة النظر إلى الله جهرة، ثم ما أخرجه لهم في التيه من الماء العذب من الحجر وإنزاله عليهم المن والسلوى ووقايتهم من حر الشمس بتظليل الغمام، فذكرهم الله هذه النعم القديمة والحديثة.**

 **وثالثها: إخبار النبي عليه السلام بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاقهم وتعنتهم مع الأنبياء ومعاندتهم لهم وبلوغهم في ذلك ما لم يبلغه أحد من الأمم قبلهم، وذلك لأنهم بعد مشاهدتهم الآيات الباهرة عبدوا العجل بعد مفارقة موسى عليه السلام إياهم بالمدة اليسيرة، فدل على بلادتهم، ثم لما أمروا بدخول الباب سجداً وأن يقولوا حطة ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم ويزيد في ثواب محسنهم بدلوا القول وفسقوا، ثم سألوا الفوم والبصل بدل المن والسلوى، ثم امتنعوا من قبول التوراة بعد إيمانهم بموسى وضمانهم له بالمواثيق أن يؤمنوا به وينقادوا لما يأتي به حتى رفع فوقهم الجبل ثم استحلوا الصيد في السبت واعتدوا، ثم لما أمروا بذبح البقرة شافهوا موسى عليه السلام بقولهم: { أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا } ( البقرة: 67 )، ثم لما شاهدوا إحياء الموتى ازدادوا قسوة، فكأن الله تعالى يقول: إذا كانت هذه أفعالهم فيما بينهم ومعاملاتهم مع نبيهم الذي أعزهم الله به وأنقذهم من الرق والآفة بسببه، فغيرُ غريبٍ ولا بعيدٍ ما يعامل به أخلافهم محمداً عليه السلام، فليهن عليكم أيها النبي والمؤمنون ما ترونه من عنادهم وإعراضهم عن الحق.**

 **ورابعها: تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم من نزول العذاب عليهم كما نزل بأسلافهم في تلك الوقائع المعدودة.**

**وخامسها: تحذير مشركي العرب أن ينزل العذاب عليهم كما نزل على أولئك اليهود، وسادسها: أنه احتجاج على مشركي العرب المنكرين للإعادة مع إقرارهم بالابتداء، وهو المراد من قوله تعالى: { كذلك يُحْيىِ الله الموتى } ( البقرة: 73 ).**

**إذا عرفت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان شديد الحرص على الدعاء إلى الحق وقبولهم الإيمان منه، وكان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمردهم، فقص الله تعالى عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم مع مشاهدة الآيات الباهرة تسلية لرسوله فيما يظهر من أهل الكتاب في زمانه من قلة القبول والاستجابة، فقال تعالى: { أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ }....انتهى. ([[28]](#footnote-28))**

**أقول: ومثل هذا العرض التدبري الراقي لوحدة القرآن الكريم، والتأمل الشمولي لآيات الله تعالى تقرأها جميعا كوحدةٍ واحدةٍ متصلة السياق والمعنى؛ تسلم بعضها لبعضٍ في سلاسةٍ وانسيابية.**

## توجُّه الخطاب

 **يقول الرازي: حول توجه الخطاب في قوله تعالى:{ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ } وجهان:**

 **الأول: وهو قول ابن عباس أنه خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لأنه هو الداعي إلى الله، واللفظ وإن كان للعموم، لكنا حملناه على الخصوص لهذه القرينة.**

 **الثاني: وهو قول الحسن أنه خطاب مع الرسول والمؤمنين. قال: وهذا أليق بالظاهر لأنه عليه السلام وإن كان الأصل في الدعاء فقد كان في الصحابة مَن يدعوهم إلى الإيمان، ويريد به الرسول ومَن هذا حاله من أصحابه، وإذا كان ذلك صحيحاً فلا وجه لترك الظاهر. انتهى ملخصاً.**

**يقول الشيخ محمد عبده: كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة، ولكن خاطب المؤمنين معه؛ لأنهم كانوا يشاركونه في الألم من إيذائهم والطمع بهدايتهم فأشركهم بالتسلية كما سبق؛ ولأن طمع المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم على الانبساط معهم في المعاشرة إلى حد الإفضاء إليهم ببعض الشئون الملية المحضة واتخاذهم بطانة، وكان يعقب ذلك من الضرر ما يعقب حتى نهاهم الله - تعالى - عن اتخاذ البطانة من دون المؤمنين إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء، وذلك قوله - تعالى -: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} (آل عمران: 118). والآية التالية تدل على هذا الإفضاء أيضا.([[29]](#footnote-29))**

**وأقول: الخطاب موجَّه لعموم أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة في حوارهم مع اليهود، ووهم التقارب الذي يدَّعيه المغرضون أو الجاهلون، فيريدون إذابة الفوارق، وبعض التنازلات تحت ستار من الدعوة إلى ثقافة (السلام الإنساني) المشبوهة، بمصطلحاتها المائعة كالتقريب والتعايش والحوار وما شابه.**

**فالتعايش السلمي مع أهل الديانات في دين الله تعالى حقيقةً، ولكن أى تعايشٍ يقصدون؟! إن كان هو مصطلح غطائي يمارسون من تحته الألاعيب والطعن في دين الله تعالى فنحن نرفض ألاعيبهم ونحاربها. فليس الحديث هنا عن تقارب فعلى وإنما لجوءًا للحيلة (الطروادية) الأسطورية القديمة، فكان الأمر كما وصفه اللاهوتي الفرنسي الأرثوذكسي (أوليفييه كليمون Olivier Clément 1921 - 2009) بقوله: «إن هذا الحوار عبارة عن عملية تغليف مذهَّبة عصرية لحبة قديمة كانوا يفرضونها قهرًا على الشعوب فيما مضى» اهـ. ([[30]](#footnote-30))**

**ويؤكد ما أذهب إليه من تجدد الخطاب ههنا للمؤمنين الداعين إلى الله وحالهم مع اليهود في كل زمان قول الرازي: والمراد بقوله: { أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ } هم اليهود الذين كانوا في زمن الرسول عليه السلام لأنهم الذين يصح فيهم الطمع في أن يؤمنوا، لأن الطمع إنما يصح في المستقبل لا في الواقع.([[31]](#footnote-31)) فلفظ الطمع الذي يشير إلى المستقبل هو بعينه الذي يمتد بالخطاب إلى كل مؤمنٍ يطمع في هداية أولئك الجاحدين من يهود في كل عصر، ويُلين خطابه ويميل بعقيدته، والحق أن اللين مطلوب في جانب الدعوة، مع رسوخ جانب العقيدة وقوته، ولا مجال أبداً لفقه التنازلات في الحديث عن أصول الدين وثوابته.**

**هكذا كتاب الله تعالى يخاطب الأمة المؤمنة ويتجدد خطابه بما يوازي تحدياتها عبر العصور، فلا تنقضي عجائبه ورعايته لمة الإسلام أبد الدهر. وهكذا يجب ان نؤمن بالقرآن كتاب حياةٍ ما دامت الحياة على الأرض، وليس خطاباً تاريخياً مربوط بزمن نزوله، حاشاه وكلّا، وما ذلك إلا غاية العلمانيين والمتعصرنين تبعاً لأسيادهم المستشرقين.**

**\*\*\*\***

**قال الرازي: ذكر العلماء في سبب استبعاد إيمان اولئك اليهود وجوهاً:**

 **أحدها: أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه السلام، وكان هو السبب في أن الله خلَّصهم من الذل وفضَّلهم على أهل زمانهم، ومع ظهور المعجزات المتوالية على يده وظهور أنواع العذاب على المتمردين منهم.**

**الثاني: أفتطمعون أن يؤمنوا، ومَن علم منهم الحق لم يعترف بذلك، بل غيَّره وبدَّله. الثالث: أفتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء من طريق النظر والاستدلال، فكيف وقد كان فريق من أسلافهم يسمعون كلام الله ويعلمون أنه حق ثم يعاندونه.ا.ه.**

 **فصل: واللام في قوله: { يؤمنوا لَكُمْ} لتضمين معنى الاستجابة. كما في قوله عز وجل {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} (العنكبوت: 26)، أي في إيمانهم مستجيبين لكم. أو للتعليل أي في أن يكون الإيمان لأجل دعوتكم. ([[32]](#footnote-32))**

## عودٌ إلى التفسير.

**قوله: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ}. يخاطب المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم. والذين لا يؤمنون هم اليهود أعداء الله. وهو استفهام فيه معنى الإنكار فأيأسهم من إيمان اليهود ثم أخبر أن كفر هؤلاء لهم سابقة في ذلك؛ وهو أن فريقاً منهم كانوا {يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} الآية. يريد به أسلافهم على عهد موسى..([[33]](#footnote-33))**

**والخطاب في الآية تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين.**

**قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة: 75)، يحرفونه أي يميلونه عن وجهه ومعناه إلى غيره، فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علمٍ منهم بتأويل ما حرَّفوا؛ وأنه بخلاف ما حرَّفوه إليه فقال: {يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ }(البقرة: 75)؛ {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي يعلمون أنهم في ذلك مبطلون كاذبون.([[34]](#footnote-34))**

**قال ابن زيد: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها؛ يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له ذلك من كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك منه، وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء؛ أمروه بالحق، فقال الله تعالى لهم: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} (البقرة: 44).([[35]](#footnote-35))**

**قال بعض العلماء ان الذين حرَّفوا كلام الله قد سمعوه مع موسى مباشرةً وهم بعض السبعين الذين قال الله فيهم {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا} (الأعراف: 155)، فلما عادوا حرَّفوا ما سمعوه، وإليه ذهب ابن عباس والربيع، قال القاضي ابن عطية رحمه الله: وفي هذا القول ضعف، ومَن قال إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ وأذهب فضيلة موسى عليه السلام واختصاصه بالتكليم.([[36]](#footnote-36)) فأى مزيةٍ لموسى عليه السلام في اختصاصه بتكليم الله له بعد ذلك؟!**

**وبعضهم حمل ذلك التحريف على أنها التوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام فبدَّلوا فيها وغيروا معانيها، وإليه ذهب السدي والحسن وابن زيد. وهو الصحيح عندي لما قدَّمنا، ويكون معنى يسمعون {يسمعون كلام الله} أى يُتلى عليهم { ثم يحرفونه} أى بسوء تأويله وعصيان أمره أيام موسى عليه السلام، وبتحريف لفظه ومعناه بعد موسى..**

**وأما عن معنى التحريف: فتَحريفُ الشيء: هو إمالته، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين، قال عزّ وجلّ: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ}(النساء 46)، و{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ} (المائدة 41).([[37]](#footnote-37))**

**فالتحريف لغةً هو تغيير الكلام والعدول به عن حقيقة وجهة معناه إلى ما يشبهه.**

**ومثال تحريف القوم مما ذكره القرآن ونظيره قوله تعالى الذي مر بنا قوله تعالى:**

**{... وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ... الآية } (البقرة: 58، 59). فقد قيل لهم {وَقُولُوا حِطَّةٌ} أى احطط عنا ربنا ذنوبنا حطةً واغفرها لنا، فدخلوا القرية يزحفون على إستاهم (أى أدبارهم) وقالوا: حنطة (أى نبغي شعيراً وحنطة) يحرفون ما أمروا به، وموسى عليه السلام بين أظهرهم. وشبيههم في ذلك كل مؤولٍ تقوَّل على الله تعالى ما لم يقله وفسر كلامه بما يخالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كالجهمية ومعطلة صفات الرب عز وجل الذين يقولون أن {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه: 5) استوى أى استولى. قال ابن القيم في نونية العقيدة:**

**نون اليهود ولام جهمي هما... في وحي ربِّ العرش زائدتانِ.**

**أمر اليهود بأن يقولوا حطة... فأبوا وقالوا حنطة لهوانِ.**

**وكذلك الجهمي قيل له استوى... فأبى وزاد الحرف للنقصانِ.**

**زاد الجهمى حرف اللام فقال استولى هى معنى استوى. وأى فائدةٍ وأى تعظيمٍ في ذكر المولى عز وجل بالاستيلاء؟ فهل لم يكن مستولياً ثم استولى؟ ولماذا يستولي على العرش وحده؟!...إلخ عشرين وجها واكثر رد بها شيخ الإسلام هذه الدعوى وبيَّن أنه نقل عظمة وصف الرب سبحانه ب( الاستواء) إلى نقص وصفه بالإستيلاء، فزيادة الجهمى نقصت من المعنى ولم تساويه حتى.**

**وقد بيَّن ابن القيم رحمه الله كيفية التحريف في الكتب السابقة كما بينها الله عز وجل في القرآن الكريم بقوله: (وأما التحريف فقد أخبر سبحانه عنهم في مواضع متعددة، وكذلك لي اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه. فهذه خمسة أمور: أحدها: لبس الحق بالباطل، وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.**

**الثاني: كتمان الحق.**

**الثالث: إخفاؤه، وهو قريب من كتمانه.**

**الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.**

**الخامس: لي اللسان به، ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره). ([[38]](#footnote-38))**

**وكل تأويلٍ باطلٍ لكتاب الله تعالى هو تحريف يزيل اللفظ عن حقيقة معناه.**

**فيكون - على هذا- التحريف على ضربين: تحريف لفظ بزيادةٍ منه أو نقص، وتحريف معنى. وهذا الأخير منه التأويل الباطل. فالتأويل الباطل هو تقويل وتقوُّل على الله تعالى ما لم يقله.**

**ولكن السؤال هنا: هل التحريف هذا طال المعنى فقط أم طال اللفظ والمعنى كليهما؟ والثاني أرجح عندي وله بحثٌ نذكره على إيجازٍ والله المستعان.**

## ما مدى تحريف ما يحمله اليهود والنصارى اليوم من الكتاب؟

**لقد تكفل الله عز وجل بحفظ القرآن فقال { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)} (الحجر: 9)، أما ما سبقه من الكتب فقد استحفظها جل جلاله الربانيين والأحبار؛ فأحدثوا فيها كثيراً من التحريف والتغيير والتبديل، كما أخبرنا الله عنهم في أكثر من موضع من القرآن الكريم. {...وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ... الآية} (المائدة: 44).**

**وقد أجمع علماء المسلمين أن التحريف على مستوى المعنى قد طال كل الكتب السابقة. واختلفوا في حصول التحريف في ألفاظها.**

 **وبعد التحقيق يتبين أن ألفاظها قد حُرِّفت أيضاً، أو بعضها أو بعض النسخ، فالتحريف في ألفاظ تلك الكتب واقع لا محالة لأنه قد وُجد فيها من الألفاظ ما لا يجوز أن يكون من كلام الله عز وجل، إضافة إلى ما فيها من التناقض والتضارب في نصوصها، فلو كان وحياً من عند الله لما وجد فيها هذا التناقض والتضارب، وقد ذكر ابن حزم رحمه الله في (كتاب الفصل) كثيراً من هذه التناقضات الظاهرة، والتي تؤكد وقوع التحريف في ألفاظها.**

**ثم إن العلامة (رحمة الله الهندي 1818-1891م) قد أبرز بحثاً ضافيا أثبت فيه فيما أثبت تحريف كتب اليهود والنصارى بما لا مجال للشك فيه في الباب الثاني من كتابه الماتع (إظهار الحق)، وقد ناظر فيه واحدا من كبار القساوسة المبشرين وغلبه في ذلك. ويكفي للمطالع في تلك الكتب ( المدنسة) من قاذورات القصص كزنا ابنتي لوط بأبيهما عليه السلام وحملهما منه سفاحا – وحاشاه- كما في سفر التكوين (19/ 30-38)، وكتدبير داود عليه السلام لقتل أوريا والاستيلاء على زوجه والزنا بها – وحاشاه- كما في سفر صموئيل الثاني (11/ 1-27)، وأن هارون عليه السلام وحاشاه قد صنع عجلاً وبني له مذبحا وعبده ومات مشركا هكذا افتروا كما في سفر الخروج (32/ 1-35). وكمثل نشيد الأنشاد ذلك الفيلم الجنسي الفاضح السافر... يكفي هذا من كثير ليُعلم أن القوم ألفوا الكتب ونسبوها إلى الله تعالى. وفي هذا ورد الذكر الحكيم {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)} (البقرة: 79).**

**فالمختار عندي - والله أعلم – ان التحريف واقع في تلك الكتب لفظا ومعنى، وإلا ما كان نهى رسول الله عن قراءتها وغضب لذلك أشد الغضب فعَنْ جَابِرِ بْنِ عبد الله أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ الْكُتُبِ قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ: ’’ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جئتكم بها بيضاء نقية’’.([[39]](#footnote-39))**

**وفي روايةٍ لأحمد: ’’ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ وَقَالَ: ’’ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي ’’.**

**قال البغوي: قوله: «أمتهوكون» أي: متحيرون أنتم في الإسلام، لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى.**

**وقوله: «بيضاء نقية» أراد الملة، كقوله سبحانه وتعالى: {وذلك دين القيمة} (البينة: 5) أي: الملة القيمة الحنيفية. وروي: أن كعب الأحبار جاء إلى عمر بمصحف، فقال: يا أمير المؤمنين، في هذا التوراة، أفأقرؤها؟ فقال: «إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزلت على موسى يوم طور سيناء فاقرءوها وإلا فلا». وقال ابن عباس: ’’ كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتاب الله بين أظهركم محضا لم يُشَبْ (أى لم يختلط به غيره كما في كتب السابقين)، وهو أحدث الأخبار بالله عز وجل، وقد أخبر الله عن أهل الكتاب أنهم كتبوا كتبا بأيديهم، فقالوا: هذا من عند الله، وبدلوها، وحرفوها عن مواضعها. عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’ لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، و {قولوا آمنا بالله وما أنزل} (البقرة: 136) ’’.**

**قال البغوي: هذا حديث صحيح([[40]](#footnote-40))**

**والحقيقة أن ما أشار إليه أبو هريرة رضى الله عنه هو دليل آخر على تحريف اللفظ في كتب اليهود والنصارى ذلك أن من مارس اللغة والأدب يعلم أن أى ترجمةٍ هي أول التحريف، إذا لا يمكن أن ينتقل النص من لغةٍ إلى لغةٍ دون أن تفقد ألفاظه الأصلية، فليست اللغات متساوية في مفرداتها، وإنما الترجمة مقاربة لتصور النص في لغته المنقول إليها، وهنا التساؤل أين نصوص الإنجيل السريانية التي نزلت على عيسى؟ او نصوص التوراة التي نزلت بالعبرانية أو الهيروغليفية ؟ وهل هو إنجيل واحد أم أربعة أم أكثر ؟ وهل هو كلام الرب أم كلام وقصص عن الرب؟ أسئلة كثيرة راجعها في كتاب (إظهار الحق)، ويكفي أن جمعية شهود يهوه في الولايات المتحدة تتحدث عن خمسين ألف خطأ خطير في المقدس غير التفاوت العريض بين طبعات الكتاب (المقدس!) ذاته.**

**وقال شهاب الدين القرافي رحمه الله: (ومن طالع كتبهم وأناجيلهم وجد فيها من العجائب ما يقضي له بأن القوم تفرقت شرائعهم وأحكامهم، وأن القوم لا يلتزمون مذهباً. والعجب أن أناجيلهم حكايات وتواريخ، وكلام كفرة وكهنة وتلامذة وغيرهم، حتى أني أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عند المسلمين أصح نقلاً من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ لا يجوز - عند المسلمين - أن يبني عليه شيء من أمر الدين، وإنما هو حكايات في المجالس، ويقولون مع ذلك: الإنجيل كتاب الله أنزله إلينا، وأمر السيد المسيح باتباعه، فليت شعري أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله تعالى؟! وأين كلماته من بين هذه الكلمات؟!**

**بل إن اليهود أنفسهم قد اتفقوا على وقوع التحريف في كتابهم؛ كما ذكر ذلك عنهم شهاب الدين القرافي رحمه الله حيث قال: (طائفة من اليهود يقال لهم السامرية، اتفق اليهود على أنهم حرفوا التوراة تحريفاً شديداً، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف، ولعل الفريقين صادقان، فأين حينئذ في التوراة شيء يوثق به مع تقابل هذه الدعاوى من فرق اليهود؟، فكفونا بأنفسهم عن أنفسهم)). ([[41]](#footnote-41))**

**ومن ذلك أيضاً أنهم يعترفون أن سبعين كاهناً منهم اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة، وقد نقل ذلك ابن القيم رحمه الله بقوله: (واليهود تقر أن السبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذي كانوا تحت قهرهم؛ حيث زال الملك عنهم ولم يبق لهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم، ومن رضي بتبديل موضوع واحد من كتاب الله فلا يؤمن منه تحريف غيره، واليهود تقر أيضاً أن السامرة حرفوا مواضع من التوراة وبدلوها تبديلاً ظاهراً وزادوا ونقصوا، والسامرة تدعي ذلك عليهم).([[42]](#footnote-42))**

**أما النصارى فقد ذكر ابن حزم رحمه الله أنهم متفقون على أن هذه الأناجيل التي بين أيديهم عبارة عن تواريخ ألفها أصحابها في أزمان مختلفة حيث يقول:**

**(النصارى لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله تعالى على المسيح، ولا أن المسيح عليه السلام أتاهم بها، بل كلهم أولهم عن آخرهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة).**

**أما ما يتعلق بالترجمة فإن التوراة قد ترجمت من العبرية إلى اليونانية والعربية، كما أن الأناجيل الأربعة قد كتبت بلغات متعددة، فإنجيل متى كتب بالعبرية، وأما مرقص ولوقا ويوحنا فقد كتبت أناجيلهم باليونانية ([[43]](#footnote-43))، ومعلوم أن التوراة والإنجيل إنما نزلت بلغة موسى وعيسى عليهما السلام وهي السريانية لغة عيسى أو العبرية أو الهيروغليفية لغة موسى على خلافٍ، ثم ترجمت بعد ذلك إلى غيرها من اللغات. ولا توجد نسخ أصلية من تلك الأزمان التي كتبت بها هذه الكتب اليوم. بل عن أقدم نسخهم هي باليونانية والرومية ( اللاتينية)**

**\*\*\*\***

**وههنا بحث لا أود الخروج من هذا المقام بغير ذكره لما فيه من الرد على التبجح النصراني بالحرب على الإسلام والمسلمين، فقد كنا نلقي إليهم السلم أما وقد اعتدوا، فالغيرة لدين الله تعالى فرض وفضيلة على قلوب المؤمنين.([[44]](#footnote-44))**

**إنَّ نصَّ القرآن الكريم موثَّق بالأصول المخطوطة، وبالرواية الشفاهية، وبالنقل المتواتر، ونزل القرآن الكريم باللغة العربية المحفوظة الباقية إلى قيام الساعة، التي ما زالت ولم تزل لغة مّن نزل عليه القرآن وهى لغتنا اليوم بلا تغيير يُذكر.**

**فمن أين جاءت بشائر القوم (أناجيلهم التي يدَّعون)؟**

**لقد بدأ المسيحيُّون كتابة عهدهم الجديد أو الأناجيل الأربعة (متى ومرقص ولوقا ويوحنا) بعد وفاة سيِّدنا عيسى ـ عليه السلام ـ بسنوات، وبلغة غير اللغة الَّتي علَّم بها عيسى ـ عليه السلام ـ حواريِّيه وتلاميذه، ولغة المسيح (ربما السريانية) ماتت وانقرضت؛ بل إنَّ المسيحيين أنفسهم على خلافٍ فيما بينهم عن تلك اللغة، إنَّهم ليسوا على يقين من لغة ربِّهم؛ فلا يصحُّ أنْ نُسَمِّي البشائر المسيحيَّة إنجيلاً، وذلك للأسباب الآتية:**

**أولا: نحن نعلم أنَّ المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ رفعه الله إليه ولم يترك وراءه كلمةً واحدة مكتوبة من الإنجيل المنزَّل عليه، وإذا أخذنا بأقوال اللاهوتيين المسيحيين في تقديمهم لبشائرهم؛ فإنَّنا لا نتردَّد في إنكارها جميعًا ونَبْذِهَا، وهذه شهادتهم على أنفسهم بالنقل من مقدمات ما يدعونه ’’الكتاب المقدَّس’’ طبعة دار المشرق ببيروت، سنة 1988م، وجاء في مقدمة الكتاب قولهم: المداخل مأخوذة من الترجمة الفرنسية المسكونيَّة للكتاب المقدس!. والهوامش مأخوذة والحواشي مستوحاة من ترجمة أورشليم الفرنسيَّة للكتاب المقدس. وجاء في مدخل العهد الجديد نقرأ:**

 **’’مهما يكن من أمرٍ، فليس هناك قبل السنة (140م) أيَّ شهادةٍ تثبت أنَّ الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيليَّة المكتوبة، ولا يُذْكر أنَّ لمؤلَّفٍ من تلك المؤلَّفات صفة ما يُلْزم، فلم يظهر إلاَّ في النصف الثاني من القرن الثاني شهادات ازدادت وضوحًا على مرِّ الزمن بأنَّ هناك مجموعة من الأناجيل، وأنَّ لها صفة ما يُلْزم، وقد جرى الاعتراف بتلك الصِّفة على نحو تَدَرُّجِىٍّ ’’.**

**ولم يقتصر الأمر على تأخُّر تسجيل كتابهم المقدَّس بعد وفاة نبيِّهم ـ أو ربِّهم بحسب ما يزعمون ـ ولكنَّ الأدهى والأمرَّ من كلِّ ذلك هو قولهم: ’’ بَلَغَنَا نص الأسفار السبعة والعشرين ([[45]](#footnote-45)) (أى للعهد الجديد) في عددٍ كبير من المخطوطات الَّتي أنْشئت في كثيرٍ من مختلف اللغات، وهي محفوظة الآن في المكتبات، في طول العالم وعرضه، وليس في هذه المخطوطات كتاب واحد بخط المؤلف نفسه، بل هي كلُّها نَسْخٌ أو نَسْخُ النَّسْخِ للكتب الَّتي خطَّتها يد المؤلف نفسه، أو أملاها إملاءً، وجميع أسفار العهد الجديد من غير أنْ يستثنى واحد منها كتب باليونانيَّة’’.**

**ثانيا: يضاف إلى ذلك أنَّ بعض النسَّاخ حاول أحيانًا ـ عن حسن نيَّة ـ أنْ يصوِّبوا ما جاء في مثالهم، وبدا لهم أنَّه يحتوى أخطاء واضحة، أو قلَّة دقَّة في التعبير اللاهوتي؛ وهكذا أدخلوا إلى النصِّ قراءات جديدة تكاد أنْ تكون كلَّها خطأ... ما أدخله النسَّاخ من تبديل على مرِّ القرون تراكم بعضه على بعضه الآخر، فكان النص الَّذى وصل آخر الأمر إلى عهد الطباعة مثقلاً بمختلف ألوان التبديل، ظهرت في عدد كبير من القراءات’’.**

**وفي ’’ مدخل إلى الأناجيل الإزائيَّة ’’ ([[46]](#footnote-46)) نقرأ قولهم: ’’ إنَّ القارئ في عصرنا ـ وهو حريص على الدقَّة، ولا ينفكُّ يبحث عن الأحداث الَّتي تمَّ إثباتها والتحقُّق منها ـ يقع في حيرة أمام تلك المؤلَّفات الَّتي تبدو له مفكَّكة، يخلو تصميمها من التنسيق، ويستحيل التغلُّب على تناقضاتها، ولا يمكنها أنْ تَرُدَّ على الأسئلة الَّتي تطرح عليها ’’.**

**ثالثا: إذا ما تركنا المقدِّمات وتشكيكها في مصداقية النصوص الَّتي تقدِّم لها،ودخلنا إلى البشائر الَّتي يسمونها الأناجيل القانونيَّة، وأولها الإزائيَّة (متى ومرقص ولوقا) فماذا يقولون عن مؤلفيها ؟**

**البشارة الأولى في الترتيب هي المنسوبة إلى السيِّد ’’متَّى’’، فمن متَّى هذا ؟**

**كان البعض يعتقد أنَّه الرسول متَّى، أحد الحواريين الاثني عشر، وأنَّه كتب بشارته بالآراميَّة للمؤمنين الَّذين هم من أصل يهودي، ولكنَّ اللاهوتيين أثبتوا أنَّ البشارة الحالية ليست ترجمة عن أصل آرامي، بل هناك ما يدلُّ على أنَّها دوِّنت باليونانيَّة، وأنَّ متَّى الَّذي كتب البشارة ليس هو الحواريّ، وإنَّما هو شخص مجهول، جاء في مقدِّمة بشارته: ’’فلمَّا كنَّا لا نعرف اسم المؤلِّف معرفة دقيقة، يحسن بنا أنْ نكتفي ببعض الملامح المرسومة في الإنجيل نفسه، فالمؤلِّف يُعْرَفُ من عمله؛ فهو طويل الباع في علم الكتاب المقدِّس والتقاليد اليهوديَّة’’ ([[47]](#footnote-47)).**

**قرأت هذه المقدِّمة، وخرجت منها بنتيجتين اثنتين فقط، هما:**

**أن ’’متَّى’’ كاتب هذه البشارة شخص مجهول، لا يُعرف عنه شيئًا باعتراف علمائهم.**

**أن الصفات المذكورة لليهودي المثقف تصلح وصفًا لأيِّ شخص تنطبق عليه تلك الصفات، ولا علاقة لها بمن كتب البشارة، ولا يلزم من وجودها في شخص أنْ يكتب بشارة، كما لا يلزم ممن يكتب بشارة أنْ يتحلَّى بكل تلك الصِّفات..**

**البشارة الثانية في الترتيب هي المنسوبة إلى مَرْقُس، فمن يكون مَرْقُس هذا ؟**

**أوَّل ما يَفْجَؤُنَا في أمره أنَّهم لا يعرفون اسمه؛ فكانوا يعتقدون أنَّه يوحنَّا مَرْقٌس المولود في أورشليم، ورفيق بولس وبرنابا، ثمَّ رفيق بطرس في رومة على الأرجح، وأنَّه كتب بشارته في نحو سنة 150م، في رومة بعد وفاة بطرس، أو قبل وفاته، فلا أحد يعلم، ومعنى ذلك أنَّ ما جاء في تلك البشارة لا يمكن التحقق من صحَّته؛ لأنَّ مرقس لم يكن من حواريِّ المسيح، ولم يكن شاهد عِيَان لما يرويه، وتلمذته لبطرس الحواريّ مشكوك فيها أيضا..**

**وزعم اللاهوتيُّون أنَّ بشارة مرقس هي الأصل الَّذي نَقَلَ عنه متَّى ولوقا، ولا أعرف كيف ينقل متَّى الحواري ـ بزعمهم ـ وشاهد العيان عمَّن لا رأى ولا سمع ؟**

**البشارة الثالثة في الترتيب هي المنسوبة إلى لوقا، فمن يكون لوقا هذا ؟**

**يقال: إنَّه طبيب، لازم بولس، وأخذ عنه، وكفاه تلك مذمَّة، بل إنَّ دائرة المعارف الفرنسيَّة ذكرت أنَّ ( إنجيلَيْ ) يوحنَّا ومرقس هما من وضع بولس اليهودي ([[48]](#footnote-48))، وعلى هذا فلن نقف عنده كثيراً؛ لأنَّه لا يستحق الوقوف عنده.**

**البشارة الرابعة والأخيرة ([[49]](#footnote-49)) في الترتيب هي المنسوبة إلى يوحنَّا، فمن يكون يوحنَّا هذا؟**

**لا أحد يعرف من يكون يوحنَّا ؟ البعض يوحِّد بينه وبين الحواري يوحنا ـ أحد ابني زبدى. ولكن ما لاحظه اللاهوتيُّون من نقص في العمل، وتفكك في الأسلوب، وبعض الفقرات غير متصلة بسياق الكلام ’’ يجري كلُّ شيْء وكأنَّ المؤلف لم يشعر قط بأنَّه وصل إلى النهاية، وفي ذلك تعليل لما في الفقرات من قلة ترتيب، فمن الراجح أنَّ الإنجيل ـ كما هو بين أيدينا ـ أصدره بعض تلاميذ المؤلِّف؛ فأضافوا عليه الفصل (21)، ولا شكَّ أنَّهم أضافوا أيضًا بعض التعليق... أمَّا رواية المرأة الزانية (7/53،ـ 8/11) فهناك إجماع على أنَّها من مرجع مجهول، فأُدْخِلَت في زمن لاحق ( وهي مع ذلك جزء من ’’ قانون ’’ الكتاب المقدَّس ) ’’ ([[50]](#footnote-50)).**

**هذا جزء من نصَّ تقديم اللاهوتيين المسيحيين لبشارة يوحنَّا، وهي واضحة وضوح الشمس، والتعليق عليها يفسد ما فيها من اعتراف بجهلهم بمصادر دينهم، وما دَخَلَهَا من تحريف، ولا يجب أنْ ننسى ما سبق أنْ ذَكَرَتْه دائرة المعارف الفرنسيَّة من أنَّ هذه البشارة من تأليف شاول اليهودي الَّذي يدعونه زورًا باسم القديس بولس، وأحب أنَّ أنبِّه القارئ الكريم إلى أنَّ المؤرخيِّن المسيحيين يعترفون أنَّ لقب ’’قدِّيس’’ كثيرًا ما أطلقته الكنيسة على أفراد لأسباب لا علاقة لها بالدين.([[51]](#footnote-51))**

**إذن نص بشائرهم نص زائف مزوَّر، لا يعرف كاتبها ولا ناسخها، ولا أصل لها بخط مؤلف، ولا بأي لغةٍ كتبت، وليس أدلَّ على زيفه من كثرة الأخطاء فيه، وتضارب الأقوال في أصوله، وهذه أمثلة من أقوال المسيحيين:**

**جاء في مقال بعنوان ’’خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدَّس ’’ المنشور في مجلَّة شهود يهوه ما يأتي:’’هناك ما يقارب خمسين ألف خطأ. وهي أخطاء قد تسلَّلت في نص الكتاب المقدَّس، إنَّها خمسون ألف خطأ خطير، ولكنَّ النص ككل ما زال صحيحا’’. ([[52]](#footnote-52)).**

 **أرأيت كيف أنَّ وجود خمسين ألف خطأ خطير في كتاب واحد لا قيمة لها، ولا تقدح في الكتاب، ولا تثير الشك فيه، ويظلَّ الكتاب صَحِيحًا ككل ؟ علمًا أنَّ علماء اللاهوت المسيحيين قد رفعوا هذا العدد إلى أنْ بلغت ثلاث مائة ألف خطأ. ([[53]](#footnote-53))**

 **يقول وِل ديورنت في قصة الحضارة: ’’ليس العهد القديم شريعة فحسب، بل هو فوق ذلك تاريخ، وشعر، وفلسفة من الطراز الأول، وإذا ما أنقصنا من قيمة الكتاب ما فيه: 1 ـ من أساطير بدائية.**

**2 ـ ومن أغلاط مبعثها صلاح الكاتبين وتقواهم.**

**3 ـ وأقررنا أنَّ ما فيه من أسفار تاريخية لا تبلغ من الدقَّة أو القدم ما كان أجدادنا السابقون يفترضونه فيه.**

**إذا ما فعلنا هذا كُلَّه فإنَّا لا نجد في الكتاب طائفة من أقدم الكتابات التاريخية فحسب بل نجد فيه كذلك طائفة من أجمل تلك الكتابات’’.([[54]](#footnote-54))**

**قال عالم المصريَّات الأمريكي الشهير جيمس بريستد (James Breasted 1865ـ 1935م) لأمَّه بأنَّه لا يمكن أنْ يكون قسيسًا بعد سنتين من دراسة اللاهوت واللغات القديمة، وشرح لها السبب وقد قرأ عليها ترجمته الخاصة لفصل من ’’الكتاب المقدس’’ من اللغة السريانية إلى اللغة الإنجليزية ثمَّ قرأ عليها الترجمة المعتمدة، ثمَّ قال: ’’ألا ترين أنَّ الترجمة المعتمدة مليئة بأخطاء تؤدِّي إلى معان مختلفة تماما عن الأصل ؟ لقد وجدت عشرات من مثل هذه الأخطاء، وأنا لا يمكن أنْ أرضى إطلاقًا بأنْ أعظ على أساس نصوص أعلم أنَّها مليئة بأخطاء في الترجمة’’. ([[55]](#footnote-55))**

**وأصدق الشهادة ما جاءت من أهلها، فالبروفيسور عبد الأحد داود ـ كان اسمه دافيد بنجامين الكلداني قبل أنْ يسلم؛ يقول: ’’كيف يمكن لأي شخص أنْ يعتمد على بيِّنةٍ أو شهادةٍ من كتاب كان أصلا ـ وباعتراف الجميع، محشوًّا بالفلكلور (أي: الحكايات، والتقاليد والعادات) حتَّى أنَّ أصالة ’’الكتاب المقدس’’ كانت ـ وعلى المستوى العالمي ـ موضع تساؤل’’. ([[56]](#footnote-56))**

**أقول: في الحقيقة أن البحث يطول وللقارئ الحرية في مطالعته من مصادره. ولكنَّ الذي يتضح ويستقر عند كل عاقلٍ وباحث أن ما بين ايدي اليهود والنصارى اليوم ليس أبداً وحي الله الذي اوحى به إلى موسى وعيسى عليهما السلام. ولذلك فهو ليس بمقدس، وإن كانت بعض تعاليم الدين ما زالت لديهم، ولكنهم عندنا ليسوا على شئٍ.**

**وهذه العقيدة في دين الحق ولا يجوز لأى تمييع أن يقترب من هذه النقطة. فنحن نعايشهم ولا نظلمهم ونراعي الله فيهم وندين الله انهم لا يدينون دين الحق.. كما قال تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) } (التوبة: 29 – 33). فهذا القرآن صريحٌ لا مواربة فيه ولا تحيّل، وما بحثنا ذلك إلا رداً على الذين ميَّعوا الأمور حين أرادوا مداراة القوم. وعلى بعض الذين شنَّعوا على قول بعض فقهاء الإسلام واتخذوها جريمةً ان قالوا أن كتاب اليهود والنصارى ليس بشئ وبالغوا أنه يصلح للاستنجاء به، وقولهم لا يخلو من صحةٍ في أنه ليس بشئ دون مبالغةٍ أو اعتداء. وحسبنا الله ونعم الوكيل.**

**\*\*\*\***

# {وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا...}.

**قال تعالى: {وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (77)}.**

**الحديث هنا متصلٌ بما قبله، فأولئك اليهود من العسير إيمانهم وأسلافهم هم الذين رأوا تنزل التوراة بينهم مع البيّنات الباهرات ثم أخذوا في تحريفها وتبديلها وكتابة ما ينسبونه إلى الله تعالى زورا وكفراً، والقوم على دين سلفهم وديدنهم- كما حققناه آنفا - وحتى الذين آمنوا بلسانهم نفاقاً منهم في عهد قوة الإسلام في المدينة المنورة هم مخادعون {وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا}.**

**والمعنى: وهم أيضا إذا لقوا المؤمنين يفعلون كذا وكذا، فكيف يُرجَى إيمانهم؟ ويحتمل أن يكون هذا الكلام مستأنفا، فيه كشف سرائرهم وفضحهم.**

**وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتباع محمد: آمنوا به فإنه حق. ثم قال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليكون لهم الحجة عليكم عند ربكم.**

**والقول الثاني: أنهم أخبروهم بما عذبهم الله به على الجنايات؛ فقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب {ليحاجوكم به عند ربكم} ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله.**

**والقول الثالث: أن النبي لما فتح خيبر حاصر بني قريظة قال لهم: ’’ يا إخوة القردة والخنازير. فقال بعضهم لبعض: هذه الكلمة ما خرجت إلا منكم، يعني: أنتم حدثتموه بذلك ’’ {أفلا تعقلون}.([[57]](#footnote-57))**

**{لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (76)} أى ليحتجوا به عليكم عند ربكم.**

**والحقيقة أن الموقف هو تجسيد حى لطبع اليهود وأشباههم (أهل التقية) الذين تراهم مع الركب حين استضعافهم، وأما في خلواتهم وحين قوتهم ودولتهم يظهر نفاقهم هم وتبجحهم بكفرهم.**

#  { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ...}

**قال تعالى:{ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)}.**

**قال تعالى: {ومنهم أميون} أي من اليهود. وقيل: من اليهود والمنافقين أميون، أي مَنْ لا يكتب ولا يقرأ، وأحدهم أمي، منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادة أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها، ومنه قوله عليه السلام: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) الحديث.**

**قال الزمخشري: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ} أى لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها {لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ} التوراة {إِلَّا أَمانِيَّ } إلا ما هم عليه من أمانيهم، وأن اللَّه يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وما تمنيهم أحبارهم من أنّ النار لا تمسهم إلا أياما معدودة.انتهى.( [[58]](#footnote-58))**

**وعند الفرّاء: أن’’الأماني’’ في هذه الآية على وجهين فِي الصرف والمعنى.**

**فإن من العرب من يخفف الياء في: « أَمانِيَّ » ومنهم من يشددها، وهو أجودُ الوجهين. وكذلك ما كان مثل أمنية، وأضحية، وأغنية، كمثلها تُخفف الياء او تُشدَّد.**

 **وفي جمعه وجهان: التخفيف والتشديد، وإنما تشدد لأنك تريد صرفها على وزن (أفاعيل)، فتكون مُشدَّدة لاجتماع الياء من جمع الفعل والياء الأصلية. وإن خففت حذفت ياء الجمع فخفَّت الياء الأصلية (وزن أفاعل)، وهو كما يقال: القَراقير، والقراقر.**

**وأما في المعنى فالأماني هنا لها معنيين: أحدهما أى التلاوة، كقول اللَّه عز وجل: «إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» أي فِي تلاوته (على أحد تفسيراتها) ([[59]](#footnote-59))، والأماني أيضا أن يفتعل الرجل الأحاديث المفتعلة قال بعض العرب لابن دأب؛ وهو يحدث الناس: أهذا شيء رويته أم شيء تَمنَّيته؟ يريد افتعلته، وكانت عند عوام اليهود أحاديث يسمعونها من كبرائهم ليست من كتاب اللَّه تعالى. وهذا أبين الوجهين (أى عنده).ا.ه ([[60]](#footnote-60))**

**أقولُ: فيكون معنى {لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ} أى لا يعلمون من شرع الله وكتابه إلا ما منّاهم أئمتهم الضالون من عفو الله تعالى وتجاوزه عن جرائمهم مهما عظمت، وكذلك لعدم فقههم فهم لا يدركون سوى تلاوتهم وقراءتهم الكتاب بغير تدبرٍ ولا فهم، أو أنهم يتبعون ما يختلقه علماؤهم المضلون ويتلونه عليهم من الكذب على الله تعالى وكتابه. ويؤيده قوله تعالى في لحاق هذه الآية {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...} (البقرة: 79).([[61]](#footnote-61))**

**قال الأستاذ محمد عبده: إنما يحسن تفسير هذه الآيات من كان على علم بتاريخ اليهود في ذلك العصر ووقوف على حالهم، وإن كانت إلا نسخة من حال بعض الشعوب الموجودين الآن...كانوا أكثر الناس مراء وجدالا في الحق وإن كان بيِّنا باهرا، وأشد الناس كذبا وغرورا وأكلا لأموال الناس بالباطل كالربا الفاحش، وغشا وتدليسا وتلبيسا، وكانوا مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وأفضل الناس كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان، فهذه هي الأماني التي صدتهم عن قبول الإسلام.([[62]](#footnote-62))**

**( وقَوْله تعالى: {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (إنْ) المخففة هنا نَافِيَةٌ: أَيْ مَا هُمْ، وَالظَّنُّ: هُوَ التَّرَدُّدُ الرَّاجِحُ بَيْنَ طَرَفَيِ الِاعْتِقَادِ الْغَيْرِ الْجَازِمِ. أَيْ مَا هُمْ إِلَّا يَتَرَدَّدُونَ بِغَيْرِ جَزْمٍ وَلَا يَقِينٍ وَقِيلَ: الظَّنُّ هُنَا بِمَعْنَى الْكَذِبِ وَقِيلَ: هُوَ مُجَرَّدُ الْحَدْسِ. فلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَامِلِينَ بَلْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، ذَكَرَ أَهْلَ الْجَهْلِ منهم بأنهم يتكلمون عَلَى الْأَمَانِيِّ وَيَعْتَمِدُونَ عَلَى الظَّنِّ الَّذِي لَا يَقِفُونَ مِنْ تَقْلِيدِهِمْ عَلَى غَيْرِهِ وَلَا يَظْفَرُونَ بِسِوَاهُ. ([[63]](#footnote-63))**

**\*\*\*\***

## وفي الآية فوائد كثيرة للتأمل منها:-

**أن الله تعالى لم يذم الأمية لذاتها، وإنما لأثرها وعواقبها في توريث الظن والتبعية، وفقدان العلم والبحث عن مراد الله تعالى منا في هذه الحياة، والقرب من موارد الهلكة بعدم معرفة الباطل وسبل المضلين وأسلحتهم.**

**وذلك أن أول ما بُدئ الوحى في أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان {إقرأ}.. فالقراءة هنا فرضٌ والفهم فرض والعلم بكل مجالاته على أمة محمد فرض، لأنها الخاتمة والمصلِحة لما أفسد أهل الكتاب قبلها.( والغريب الذي يسترعي انتباه الفلاسفة والمفكّرين في العالم، والمؤرّخين للديانات والحياة العلمية، هو ذكر «القلم» في هذا الوحي الأول، الذي ينزل على أميّ يبعث في أمّة أميّة في بلد تعذّر فيه وجود القلم، ولم يجاوز عدد «الكتاب» (وهم المتعلّمون) عدد الأنامل، فدلّ ذلك على ربط هذه الديانة والأمة التي تدين بها وتحملها، بالقراءة والكتابة والاستعانة بالقلم، ربطا دائما وثيقا، بخلاف ديانات كثيرة سابقة، وكان ذلك سرّ انبثاق حركة علمية تأليفية عالمية، لا يوجد لها نظير في تاريخ الديانات والأمم. وكذلك كان ورود آية {عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} (العلق: 5) في هذا الوحي، حافزا على التوسع في آفاق العلم، والاكتشاف للمجهول، والترقّب للمزيد الجديد، وعدم إنكار حقائق علمية ثابتة لم تكتشف في العصور الماضية. ) ([[64]](#footnote-64))**

**إن المعرفة قوة؛ هكذا يؤكد علماء وفلاسفة العصر الحديث. وهكذا انتصر الغرب وساد. العلم مع الإيمان هما أمل الإنسانية الأخير في إصلاح ما أفسده المضلون.**

**وإن التبعية لأئمة الضلال سببها الأول هو الجهل والتسليم لهم فيما يختلقونه من أكاذيب، وإن الأمر الرباني المتكرر في كتابه العظيم بالتدبر، والسير في ملكوت الله والاعتبار به، والعقل لكل ما يمر من أفكار ومعتقدات، والتأمل لدعاوى المدَّعين حتى يكررها الله تعالى مراراً {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} (البقرة: 111، الأنبياء: 24، النمل: 64، القصص: 75)؛ إن كل هذا لهو من لوازم الأمر العظيم {اقرأ} الذي يرفض أمية أمةٍ منوطةٍ بنشر الإيمان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى تكون {خير أمةٍ أخرجت للناس}.**

**وإن جهل أكثر المسلمين اليوم وأميتهم المقيتة في دين الله تعالى وفي العلوم على عمومها لهو أهم وأخطر أسباب تخلفنا وتبعيتنا وضلال الكثيرين في الدين والدنيا.**

**\*\*\*\***

**ولما بين حال هؤلاء في تمسكهم بحبال الأمانيّ واتباع الظن، عقب ببيان حال الذين أوقعوهم في تلك الورطة، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. فقيل على وجه الدعاء عليهم وتهديدهم والوعيد لهم على فعلهم.**

**{فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)}.**

**وَالْوَيْلُ: هو الْهَلَاكُ والحزن والعذاب والهوان في اللغة. وقيل: هو وادٍ في جهنم من عصارة أهل النار. والله أعلم ([[65]](#footnote-65))**

**{لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ} أي المحرَّف. أو ما كتبوه من التأويلات الزائفة {بِأَيْدِيهِمْ } تأكيد لدفع توهم المجاز. كقولك: كتبته بيميني. بمعنى أنهم باشروا كتابته بأنفسهم؛ فقد يأمر المرء بكتابة شئٍ ويُنسب إليه ولا يكون مباشراً لذلك بيده. كمَن يقول: باعني فلان عينُه كذا، أى باشر البيع بنفسه لا بتوكيل أحد. والفائدة هنا زيادة التاكيد على فجورهم إذ يكتبون الكتاب بأيديهم متعمدين تحريفه والكذب على الله تعالى. وهذا الموضع مما يحسن فيه التأكيد كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبته بيمينك.**

**قال الراغب: وفيها وجهٌ آخر، وهو أن الفعل ضربان: ابتداء، واقتداء، فيُقال فيما كان ابتداء: ’’ هذا مما عملته يدي فلان ’’، فقوله: {مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ} أي مما اخترعوه من تلقائهم، وليس ما أُملى عليهم فكتبوه، وعلى هذا قد يحمل قوله تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}.([[66]](#footnote-66))**

 **وقد يقال في مثل هذا: إن فائدته تصوير الحالة في النفس كما وقعت حتى يكاد السامع لذلك أن يكون مشاهدا للهيئة {ثُمَّ يَقُولُونَ} لما كتبوه، كذبا وبهتانا {هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ} أي يأخذوا لأنفسهم بمقابلته {ثَمَناً قَلِيلًا} أي عرضا من الدنيا يسيرا. ويجوز في الآية معنى آخر: اى هم الذين يكتبون كلام الله ويعلمون ما فيه من الحق ثم يحرفونه ليشتروا به عرضاً من أعراض الدنيا الحقيرة. وهنا يكون هناك محذوف تقديره {لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بأيديهم} ثم يحرفونه ويقولون هذا من عند الله...**

**قال الرازي: أما قوله تعالى: {ليشتروا به ثمنا قليلا} فهو تنبيه على أمرين. الأول: أنه تنبيه على نهاية شقاوتهم لأن العاقل يجب أن لا يرضى بالوزر القليل في الآخرة لأجل الأجر العظيم في الدنيا، فكيف يليق به أن يرضى بالعقاب العظيم في الآخرة لأجل النفع الحقير في الدنيا، الثاني: أنه يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف ديانةً؛ بل إنما فعلوه طلبا للمال والجاه، وهذا يدل على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم، لأن الذي كانوا يعطونه من المال كان على محبةٍ ورضا، ومع ذلك فقد نبَّه تعالى على تحريمه. ([[67]](#footnote-67))**

 **{فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ} أي: فشدّة العذاب لهم مما غيرت أيديهم {وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} يصيبون من الحرام والسحت.**

**قال الراغب: إن قيل: لم ذكر {يَكْسِبُونَ} بلفظ المستقبل و{كَتَبَتْ} بلفظ الماضي؟ قيل: تنبيها على ما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» «رواه مسلم»، فنبَّه بالآية أن ما أضلّوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة، التي يعتمدها الجهلة، هو اكتساب وزر يكتسبونه باستمرار وكل وقتٍ ومع كل مَن يضله هذا الي صنعوه، فقد صنعوا عملية مستمرة من الضلال والإضلال عبر العصور.**

 **و(إن قيل) لم ذكر الكتابة دون القول؟ (قيل) لمّا كانت الكتابة متضمنة للقول وزائدة عليه، إذ هو كذب باللسان واليد، صار أبلغ. ولأن كلام اليد يبقى رسمه وأثره في الهداية أو الإضلال، والقول ربما يضمحل أثره.**

**قال الأستاذ محمد عبده: من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه أولئك اليهود، فلينظر فيما بين يديه، فإنه يراها واضحة جلية، يرى كتبا أُلفت في عقائد الدين وأحكامه حرفوا فيها مقاصده وحولوها إلى ما يغر الناس ويمنيهم ويفسد عليهم دينهم، ويقولون: هي من عند الله وما هي من عند الله، وإنما هي صادة عن النظر في كتاب الله والاهتداء به، ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين: رجل مارق من الدين يتعمد إفساده ويتوخى إضلال أهله، فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الصلاح، يخادع بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول، ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيل ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه.**

**ثم ذكر الأستاذ وقائع، طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل، وما عليه المسلمون الآن، ذكر وقائع للقضاة والمأذونين، وللعلماء والواعظين، فسقوا فيها عن أمر ربهم، فمنهم من يتأول ويغتر بأنه يقصد نفع أمته، كما كان أحبار اليهود يفتون بأكل الربا أضعافا مضاعفة ليستغني شعب إسرائيل، ومنهم من يفعل ما يفعل عامدا عالما أنه مبطل، ولكن تغره أماني الشفاعات والمكفرات. انتهى([[68]](#footnote-68))**

**يقصد ما يفعله مرجئة العلماء في هذه الأيام من الهروب من عقيدة الخوارج إلى عقيدة الإرجاء بكل ما فيها من تملص من تكاليف الدين ومتطلباته. ووالله إن أمثال هذه الآية لتصح في الروافض والخوارج والفرق الضالة من المسلمين الذين يحرفون كلام الله بتأويلهم الباطل، وكتبهم التي كتبوها وادعوا أنها الدين، حتى إنهم أصَّلوا أصولاً بديلةً عن التوحيد وجعلوا عليها الولاء والبراء، وقالوا زوراً {هذا من عند الله}....(!!)**

**قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات: فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة.**

**وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتابا بيده مخالفا لكتاب الله، لينال به دنيا وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة، لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي يقوله. وهذه الأمور كثيرة جدا في أهل الأهواء جملة، كالرافضة، وتفصيلا مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء.([[69]](#footnote-69))**

**والحقيقة أن القرآن بمثل هذا الحديث المتكرر والموثق عن بني إسرائيل وفظائعهم ينبه على أمرين:**

1. **أن تاريخ اليهود والنصارى كفرع عنهم هو تاريخ متصل، وما أشبه الليلة بالبارحة.**
2. **وأن الله تعالى يمُنُّ على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ببيان زلات ومهالك ومهاوي الذين من قبلهم حتى يعلوا ما نشأ من شرٍ فيهم فيتداركوه. والحمد لله رب العالمين.**

**ومن عجيب تأمل العلامة الرازي: أن ربنا تبارك وتعالى وصف من اليهود ثلاث أقسام أساسية: فالفرقة الأولى: هي الفرقة الضالة المضلة، وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه. والفرقة الثانية: المنافقون، الذين أظهروا الموافقة وأبطنوا الكفر، والفرقة الثالثة: هم العامة الأميون الذين لا معرفة عندهم بقراءة ولا كتابة وطريقتهم التقليد وقبول ما يُقال لهم، فبيَّن الله تعالى أن سبب الامتناع عن قبول الإيمان ليس واحدا؛ بل لكل قسمٍ منهم سبب آخر. قال: ومن تأمل ما ذكره الله تعالى في هذه الآية من شرح فرق اليهود وجد ذلك بعينه في فرق هذه الأمة، فإن فيهم من يعاند الحق ويسعى في إضلال الغير وفيهم من يكون متوسطا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وفيهم من يكون جاهلاً مقلدا يتبع كل ناعق.([[70]](#footnote-70))**

**وذلك نظير قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)} [آل عمران: 23، 24]بسب نزوله (؟؟؟؟؟؟)**

# {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً...}

**قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) } (البقرة: 80 – 82)**

**عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: لما فتحت خيبر أُهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’اجمعوا لي مَن كان مِن اليهود هاهنا’’، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’مَن أبوكم؟ ’’ قالوا: فلان. قال: ’’كذبتم، بل أبوكم فلان’’. فقالوا: صدقتَ وبررتَ، ثم قال لهم: ’’هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ ’’. قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’مَن أهل النار؟ ’’ فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’اخسأوا، والله لا نخلفكم فيها أبدا’’. ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ ’’. قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: ’’هل جعلتم في هذه الشاة سما؟ ’’. فقالوا: نعم. قال: ’’فما حملكم على ذلك؟ ’’. فقالوا: أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك. رواه أحمد، والبخاري، والنسائي.**

**هكذا يواصل القوم تيههم في أمانيهم الباطلة، وغرورهم بأنهم شعب الله المختار، ولا يقف سفه اليهود عند حدّ، فهم يفترون على الله الكذب، إذ يتخذون لأنفسهم مكانا عنده، تمليه عليهم أهواؤهم، يتبجحون بالباطل حتى لكأنهم يملكون سلطان على الله أو عهداً بحمايتهم في جرائمهم، ووقايتهم من عقوبة فسادهم وإفسادهم، وحاشاه سبحانه وتعالى عن كذبهم. قالوا: نحن أبناء الله وأحبّاؤه. فكان قول الحق لهم: «فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ» (18: المائدة)**

**«وَقالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً» والتقديرُ: لَنْ تَمَسَّنا النارُ أبداً إلا أياماً قلائلَ يَحْصُرُها العَدُّ، لأن العَدَّ يَحْصُر القليلَ. قال الراغب: ووجه ذلك أنه لما كان المعدود على ضربين، ضرباً قليلاً يسهل عده (وإحصاؤه)، وكثيراً لا يسهل عده، وكانت الأعراب يقل فيهم الحساب وقوانين الحساب، تصوروا الكثير متعذر العد، والقليل متيسر العد، وقالوا: شي معدود أي قليل، ومحصور أي كثير.**

**ووجه الآية أن اليهود اختلفت، فبعض قال نُعّذَّب بعدد الأيام التي عبد أصحابنا فيها العجل، وبعض قال: مدة الدنيا سبعة ألاف سنة؛ وإنما نُعّذَّب مكان كل ألف**

**سنة من الدنيا يوما من الآخرة، وبعضه قال: إنما بين طرفي جهنم أربعون سنة، وإذا خلاً العدد انقضى الأجل ولا عذاب.([[71]](#footnote-71))**

**وهذا القول من اليهود ليس بلسان المذنبين منهم فقط، ليهوّنوا على أنفسهم اقتراف المنكر، واستساغة تعاطيه وإدمانه، وإنما هو على لسان الشريعة التي افتروها على الله، وخصّوا بها أنفسهم.. إنهم إذ كانوا يهودا- لهم حكمٌ خاص، فلا تنالهم النار إلا مسّا، ولأيام معدودة (؟!).. هذا هو حكم العصاة والمجرمين والملحدين منهم، الذين غرقوا إلى أذقانهم في الإثم والضلال!! وبهذا التفكير الآثم، الذي أدخلوه مدخل الشريعة. استطاعوا أن يترضّوا أهواءهم، وأن يشبعوا أطماعهم، وأن يركبوا كل منكر، ويأتوا كل قبيح، في جانب الله، وفي حق الناس!**

**ومثلهم في أمة محمد صلى الله عليه وسلم أولئك المرجئة الذين يتطرفون في جانب الرجاء حتى يميعوا الدين كله تحت شعار ( ربك رب القلوب)، والعمل ليس ضرورة في الإيمان عندهم.**

**الخلاصة أن أولئك الهالكين من اليهود وأشباههم قد اقترفوا في اعتقادهم وقولهم ذلك جرائم وليس جرما واحدا منها: أولا: أنهم اتهموا الله عز وجل في عدله وقدرته، اتهموه حين وصفوه سبحانه بممالئتهم على باطلهم وجرائمهم وأنهم لا يُحاسبون كما تحاسب سائر الناس.**

**ثانيا: أن أمانيهم الباطلة تلك لم تقف عند حد الأماني حتى صارت ديناً يعتقدونه ويتحركون وِفقه، فيسهِّل عليهم ركوب كل معصية وولوج كل فاحشة.**

**ولله در الحسن البصري إذ يقول: ’’ ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن قوماً غرتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، قالوا: نحن نحسن الظن بالله.كذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ’’.**

**يقول أبو العتاهية:**

**إلهي لا تعذبني فإني \*\*\* مقر بالذي قد كان مني.**

**فما لي حيلة إلا رجائي \*\*\* لعفوك إن عفوت وحسن ظني.**

**وكم من زلةٍ لي في البرايا \*\*\* وأنت علي ذو فضلٍ ومَنِّ.**

**إذا فكَّرتُ في ندمي عليها \*\*\* عضَضْت أناملي وقرعتُ سِنِّي.**

**أُجَنُّ بزهرة الدنيا جنوناً \*\*\*\* وأقطع طول عمري بالتمني.**

**ولو أني صدقتُ الزهد فيها \*\*\*\* قلبت لأهلها ظَهر المجنِّ.**

**يظن الناس بي خيراً وإني \*\*\*\* لشرُّ الناس إن لم تعفُ عني.**

**\*\*\*\***

**قال المفسرون: معناه: هل اتخذتم عند الله عهدا باتباع شريعته اعتقادا وائتمارا وانتهاءاً وتخلُّقا، فأنتم واثقون بعهد الله في كتابه لمن كان كذلك بالنجاة من النار، ودخول الجنة ومغفرة ما عساه يفرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة؟.**

**قال سبحانه: {أَتَّخَذْتُمْ} الهمزةُ للاستفهامِ، ومعناهُ الإِنكارُ والتقريعُ، وبها استُغْنِيَ عن همزةِ الوصل الداخلةِ على «اتَّخَذْتُم» كقوله: {أفترى عَلَى الله} (سبأ: 8)، {أَصْطَفي} (الصافات: 153). { أَتَّخَذْتُمْ عند الله} أى في حكمه {عهدا} عهده إليكم خاصة. {فَلَنْ يُخْلِفَ الله عهده} هذا جوابُ الاستفهامِ المتقدِّمِ في قوله: {أَتَّخَذْتُمْ} تقديرُه: إن اتَّخَذْتُمْ عندَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عهدَه، (أو) هل اتخذتم عند الله عهدا، فإن كان ذلك، فلن يخلف الله عهده.([[72]](#footnote-72))**

**قوله تعالى: {بلى}.. حَرْفُ جوابٍ مثل نَعَم وأَجَلْ وإي، إلاَّ أَنَّ «بلى» جوابٌ لنفي متقدِّمٍ، سواءً دخلَه استفهامٌ أم لا، فيكونُ إيجاباً له نحو قول القائلِ: ما قام زيدٌ فتقولُ: بلى، قد قام، وتقول: أليس زيداً قائماً؟ فتقول بلى، أي: هو قائم، قال تعالى: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى...}(الأعراف: 172)، فقوله تعالى: «بلى» رَدٌّ لقولِهم: {لَن تَمَسَّنَا النار} أى تدخلوها بذنوبكم، ويخلد فيها كل كافر بالله معاند لحكمه([[73]](#footnote-73))..**

 **يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافي يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات -من العمل الموافق للشريعة- فهم من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا\* وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} (النِّسَاءِ: 123، 124).([[74]](#footnote-74))**

**عن عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ’’إيَّاكم وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ’’. وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، وَأَجَّجُوا نَارًا، فَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا ’’.([[75]](#footnote-75))**

**وتأمل عظمة التعبير القرآني في قوله تعالى: {وأحاطت به خطيئته}، لتشعر بتلك الذنوب تحيط بصاحبها حتى تخنقه وتضيِّق عليه فلا يجد منها مفراً ولا ملجأً، إنها تجيئه من كل جوانبه فيكون محبوساً محصوراً داخلها... أولئك المنحلين المنغمسين في وحل الذنوب وحضيضها...**

**قال الأستاذ محمد عبده: السيئة هنا على إطلاقها، وخصها بعض المفسرين بالشرك، ولو صح هذا لما كان لقوله - تعالى -: {وأحاطت به خطيئته} معنى؛ فإن الشرك أكبر السيئات، وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان، ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها، وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا منها، يرى نفسه حرا مطلقا وهو أسير الشهوات، وسجين الموبقات، ورهين الظلمات، وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب، والتمادي على الإصرار، قال - تعالى -: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} (83: 14) أي من الخطايا والسيئات، ففي كلمة {يكسبون} معنى الاسترسال والاستمرار، وران عليه: غطاه وستره، أي أن قلوبهم قد أصبحت في غُلُف من ظلمات المعاصي، حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه، ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحا وإقلاعا صحيحا، لا تحيط به الخطايا، ولا ترين على قلبه السيئات.**

**روى أحمد والترمذي والحاكم - وصححاه - والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ( إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله - تعالى - في القرآن: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}). لمثل هذا كان السلف يقولون: المعاصي بريد الكفر. ([[76]](#footnote-76))**

**\*\*\***

# نقضهم المواثيق

**قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)} (البقرة:83-86)**

**يبتدأ مع القوم حوارٌ جديد يذكرهم بنعمة أخرى من جليل النعم عليهم وهى أن بيَّن الله لهم كل خيرٍ برسالاته، وعرّفهم الطريق إلى رضاه وصلاح دنياهم وآخرتهم.**

**ولكنهم أهل نقضٍ وتلاعبٍ ومروقٍ وكفران؛ فكان أن أقام الله عليهم الحجة بأخذ العهود والمواثيق بما بلَّغ إليهم {...لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)} (النساء: 165).**

**والمعنى: واذكروا إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأقمنا عليهم حجة البلاغ والبيان في حياة نبيهم موسى عليه السلام...ثم يدعوهم سبحانه إلى المبادئ العامة التي يقوم عليها دين الله تعالى، مهما اختلفت الشرائع. فالتوحيد، والإحسان للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الحسن لكل الناس، والصلاة، والزكاة إلى الفقراء هي ضروريات الدين التي تقوم عليها سعادة الدنيا والآخرة. وهى أصول لا تتبدل ولا تُنسخ، وإليها تجتمع كل شرائع الدين وحقائقه.**

**يقول العلماء إن القرآن جاء بهذه الوصايا وفي أولها { لا تعبدون} بهذه الصيغة الخبرية وهى في معنى النهى عن عبادة غير الله؛ كأنه من شدة التأكيد عليها جعلها أمرا في قوته واقعاً. كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر( لابد أن تذهب...)، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى، لأنه كأن فيه الحض على السرعة وحصول الامتثال والانتهاء...([[77]](#footnote-77))**

**(وهذا النهي عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته - تعالى - ولم يُصرَّح به؛ ولأنهم كانوا يعبدون الله، وإنما يُخشَى عليهم الشرك به كما وقع من بني إسرائيل في بعض الأجيال ومن غيرهم من الشعوب، فالأصل الأول لدين الله على ألسنة جميع رسله هو أن يُعبَد الله وحده، ولا يُشرَك به عبادة أحد سواه من ملك ولا بشر ولا ما دونهما بدعاء ولا بغيره من أنواع العبادة، كما قال تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا)} (النساء 36) فالتوحيد لا يحصل إلا بالجمع بين الأمرين). ([[78]](#footnote-78))**

**وعبادة الله وحده أو التوحيد هو أصل الرسالات السماوية كلها، وبه بدأت الأنبياء جميعا دعوتها. ومنه تبدأ كل حركة إصلاح في المجتمع.**

**واعْلَمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ، وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ، وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قال نوح أول الرسل، وَمثله قَالَ هُودٌ، وصالح، وشعيب؛ بل جميع الأنبياء عَلَيْهِم السَّلَامُ قالوا لِأقَوامِهم: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} ([[79]](#footnote-79)).**

**وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (الأنبياء: 25). وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النَّحْلِ: 36).**

**يقول شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب طيَّب الله ثراه: افترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاعٍ. والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله.**

**قال: فأما صفة الكفر بالطاغوت فهو أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم.**

**وأما معنى الإيمان بالله فهو أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم.ا.ه ([[80]](#footnote-80))**

**وقال ابن القيم: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع. فطاغوت كل قوم مَن يتحاكمون إلى غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله. فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته.**

**وبنو إسرائيل هنا وعلى مدى تاريخهم، وأمثالهم في كل أمةٍ تعبد رؤسائها وطواغيتها، {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)} (آل عمران: 78 – 80). وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق التوحيد، ويعلمه أمته، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت قال: ’’ أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده’’. ونهى عن الحلف بغير الله وقال: ’’من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك’’ (رواه الترمذي وأبو داود واحمد). وقال في مرض موته: ’’لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ’’ يحذِّر ما صنعوا ( رواه البخاري ومسلم والنسائي).، وقال: ’’اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد’’ (رواه مالك في النداء للصلاة). وقال: ’’لا تتخذوا قبري عيدا، ولا بيوتكم قبورا. وصلوا علي حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني’’( رواه أبو داود واحمد). ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور، ولا الصلاة عندها، وذلك لأن من أكبر أسباب عبادة الأوثان كان تعظيم القبور.**

**في الحقيقة ليس في الدين وصاية من بشرٍ إلا ما أُمر النبيون بتبليغه عن الله تعالى فبلَّغوه، وليس لولىٍّ ولا وصىٍّ ولا إمامٍ أن يخترع في الدين اختراعا ثم يتبعه أحدٌ عليه، وذلك وأمثاله بعض أمثلةٍ من تجريد التوحيد لرب العالمين والموضوع لا تكفيه المجلدات.**

**\*\*\*\***

**ثم يأتي بعد الله سبحانه- وكفي بذلك شرفاً وحضاً- الإحسان بالوالدين، والإحسان**

**نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية. ذلك أنهما مفتاحا أول علاقةٍ بعد الله مع الحياة، فإظهار الامتنان لهما هو امتنان للخالق سبحانه، والكفران لجميلهما هو بدء الكفران على العموم، ولعل في القرآن عينه إشارة لطيفة لمبررٍ من مبررات هذا الإحسان حين يقول تعالى: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)} (الإسراء: 24)، لذلك جعل الله عقوق الوالدين من أكبر الكبائر. روى ابن حبان وغيره عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: ’’مِنْ أكْبَرِ الْكَبَائِرِ الإشْرَاكُ بَاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ.’’(صحيح الإسناد). ([[81]](#footnote-81))**

**والأمر بالإحسان هنا هو قطع لمعنى الإساءة، ومعنى عدم الإحسان كليهما، فهما ضدا الإحسان. ولذلك كان من كبار الحسنات في الإسلام بر الوالدين. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: (الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا) قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ (ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) - قَالَ حدثني بهن ولو استزدته لزادنى ([[82]](#footnote-82)).**

**وعن عروة بن الزبير في قوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} (سورة الاسراء: 24) قال: لا تمتنع من شيء أحباه.انتهى وغيره الكثير من الآثار التي تدل دلالةً قاطعةً على وجوب الإحسان إلى الوالدين وحرمة الإساءة إليهما، ولذلك كثيراً ما جاءنا هذا الاقتران الثنائي في آيات القرآن بين الأمر بالتوحيد والإحسان إلى الوالدين.**

**[ وأما قوله - عز وجل: {وقولوا للناس حسنا} فهو كلام جديد له شأن مخصوص، ولذلك تغير فيه الأسلوب، فلم يرد على النسق الذي قبله مع دخوله في الميثاق، فإنه بيَّن سبحانه فيما سبق الحقوق العملية وعبر عنها بالإحسان، ويستحيل أن يحسن الإنسان بالفعل إلى جميع الناس؛ لأنه لا يمكن أن يعامل جميع الناس، فالذين لا بد له من معاملتهم هم أهل بيته وأقاربه الذين ينشأ فيهم ويتربى بينهم، فجاء النص بوجوب الإحسان في معاملتهم لتصلح بذلك حال البيوت، ثم بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين، وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم، بقي بيان حقوق سائر الأمة، وهي النصيحة لهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم، فهذا هو معنى قوله - تعالى -: {وقولوا للناس حسنا}، وليس معناه مجرد التلطف بالقول والمجاملة في الخطاب، فالحَسَن هو النافع في الدين أو الدنيا، وهو لا يخرج عما ذكرنا، فلما كان هذا النوع من الحقوق مستقلا بذاته جاء بأسلوب آخر، ولا شك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها.]. ([[83]](#footnote-83))**

**قال السعدي رحمه الله: (ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصِم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملا لكل أحد، صبورا على ما يناله من أذى الخلق، امتثالا لأمر الله، ورجاءً لثوابه.**

**ثم أمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنةٌ للإحسان إلى العبيد.**

**{ثُمَّ} بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم وأخذ المواثيق عليكم {تَوَلَّيْتُمْ}،{ وأنتم معرضون} أى على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان.**

**وقوله: {إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ} هذا استثناء، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلا منهم، عصمهم الله وثبتهم.([[84]](#footnote-84))**

**وهنا جاءت جملة {إِلا قَلِيلا مِنْكُمْ} معترضة بين { ثم توليتم} و{ معرضين}وهى مما يسميه البلاغيون (الاحتراز)، وهو توجيه للمعنى حتى لا يوهم غيره؛ ومن الاحتراز أيضاً قول عبد الله بن المعتز بالله في صفة الخيل:**

**صببنا عليها- ظالمين- سياطنا... فطارت بها أيد سراع وأرجل**

**فإنه لو يقل: (ظالمين) لكان للمعترض عليه أن يقول: إنما ضرب الخيل لبطئها. ومثاله ما قاله بعض الشعراء: فسَقَى ديارَك غيرَ مفسدِها... صَوْبُ الرّبيعِ ودِيمة تهمى.**

**فقوله (غير مفسدها) فضلةٌ واردة لرفع الإيهام الحاصل ممن يدعو على الديار بكثرة المطر ليكون مفسدا لها، فانظر إلى موقع هذه اللفظة ما أرقه وما ذاك إلا من أجل ما اشتملت عليه من هذا الاحتراز الذى ذكرناه.**

**وهنا لبيان خصيصة من خصائص القرآن الجميلة وهى الإنصاف الرباني الذي يشي بعظمة وحكمة وعدل الله تعالى، هذا الاستثناء يمنع تعميم الأحكام الجائر الذي نجده بين البشر.**

**\*\*\***

# ميثاقٌ جديدٌ، ونقضٌ أيضاً

**قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)}.**

**يعود الخطاب هنا لبني إسرائيل، وميثاق جديد قد أخذه الله عليهم ونقضوه، ليسجل القرآن عليهم ذلك مرةً أخرى، وليكون حجةً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حين يشهدون على الأمم يوم القيامة بما جعل الله فيهم من هذا الكتاب العظيم؛ كما يأتي عقب هذا التسجيل الدقيق لكفران بني إسرائيل قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...} (البقرة: 143). فالأمة المحمدية كتب الله عليها أن تعرف مكانها ووضعها اللائق بها بين الأمم كأمةٍ نزل فيها كتاب الله يبين لها المزالق والمعطفات الخطيرة والسقطات التي وقعت فيها الأمم قبلها، ومن هنا تبدأ المسؤولية الحقيقية لهذه الأمة أمام الله تعالى ألا تتكرر أخطاء السابقين فيها. وهذا في الحقيقة هو أول وأغلى مقاصد القصص القرآني، فتأمل.**

**وأما قوله: { وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم } فإنه خطاب لعلماء اليهود في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، أو أنه خطاب مع أسلافهم، وتقديره وإذ أخذنا ميثاق آبائكم. أو أنه خطاب للأسلاف وتقريع للأخلاف. والأول أولى لتعلقه بتاريخ اليهود في المدينة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما يعضده السياق بعد. وتداخل الدلالة من وراء الخطاب لما قدمنا من أن اليهود أمة تاريخية تحيا على تاريخها.([[85]](#footnote-85))**

**أما قوله تعالى: { لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ } فقد وجَّهه المفسرون فقال ابن عباس وقتادة: معناه لا يسفك بعضكم دم بَعضٍ بغَير حقٍّ. وإنما قال: {دِمَاءَكُمْ} لأن كل قوم اجتمعوا على دين واحد فهم كنفس واحدة، وأيضًا فإنّ الرجل إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه؛ لأنه يُقاد ويُقتص، ففي النهي عن قتل نفسه على هذا الوجه نهي عن قتل غيره.([[86]](#footnote-86))**

**وقيل فيها مجاز: أى لا تكونوا سببا في قتلكم، إن اعتديم بغير حقٍ على غيركم، فاعتدى عليكم فقتلكم، وإن خالفتم العهود فأُخرِجتم بفعلتكم مثل ذلك.**

**والأول عندي أولى يؤيده سياق الآيات ومسار نزولها الآتي بعد. كما أن فيه عند التامل معنى جميلاً يظهر للمتأمل لعلاقة الدين والنسب التي تجعل رحم النسب ورحم الدين بمثابة الجامعة كنفسٍ واحدةٍ، فقاتل مَن هو من رحمه ودينه يقتل نفسه عند التأمل.**

**[ قيل للأحنف بن قيس‏:‏ ممن تعلمت الحلم? فقال‏:‏ من قيس بن عاصم؛ رأيته يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه، يحدث قومه، إذ أتي برجل مكتوف وآخر مقتول، فقيل‏:‏ هذا ابن أخيك قتل ابنك قال‏:‏ فوالله ما حل حبوته، ولا قطع كلامه‏.‏ فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه فقال‏:‏ يا ابن أخي، بئسما فعلت، أثمت بربك، وقطعت رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك، وقللت عددك‏.‏ ثم قال‏:‏ لابن له آخر‏:‏ قم يا بني إلى ابن عمك، فحل كتافه، ووار أخاك، وسق إلى أمك مائة من الإبل دية ابنها فإنها غريبة‏ ].‏**

**وقوله تعالى: {وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ} أي: لا يخرج بَعضكُم بعضًا مِن دَاره ويغلبه عَليها. {ثُمَّ أَقرَرتُم} أي: قبلتم ذلك وأقررتم به. {وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} عن ابن عباس: أن هذا خطاب لليهود الذين كانوا زمن النبي - صلى الله عليه وسلم -. ومعناه: وأنتم تشهدون اليوم على إقرار أوائلكم بأخذ المِيثاق عليهم بما في الآية، فالآية وإن كانت خِطابًا فالمراد به: أوائلهم، إلّا قوله: {وَأَنتُم تَشهَدُونَ} على هذا القول. قال الواحدي في البسيط: ويحتمل أن يكون قوله: {وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} خِطابًا للسَلف والخلف جميعًا، يريد: أنتم تشهدُون أن هذا حق من ميثاقي عَليكم في التوراة.**

**قال ’’الطبري’’: وأولى الأقوال عندي أن يكون قوله: (وأنتم تشهدون) خبرًا عن أسلافهم، وداخلًا فيه المخاطبون منهم الذين أدركوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما كان قوله (وإذ أخذنا ميثاقكم) خبرًا عن أسلافهم، وإن كان خطابًا للذين أدركوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم. أقول: ويحل هذه الإشكالية ما قدمناه من تداخل الخطاب، وقيمته الدلالية.**

**قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ} الخطاب في هذه الآية لقُريظة والنضير.**

**وقد كشف السُدِّي عن هذا، فقال: أخذ الله عليهم أربعةَ عهود: تركَ القتل، وتركَ الإخراج، وتركَ المظاهرة عليهم، وفدى أسراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا إلا الفداء. وذلك أن قريظة كانت حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، وكانوا يقتتلون، فتقاتل بنو قريظة مع الأوس، والنضير مع الخزرج، فإذا غلبوا خربوا ديارهم، وأخرجوهم منها، فإذا أُسر رجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتى يفدوه، فتعيّرهم العرب بذلك، وتقول: كيف تقاتلونهم وتفادونهم؟ فيقولون: إنَّا أُمرنا أن نفادَيهم، وحُرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحيي أن يُسْتَذَلّ حلفاؤنا، فذلك حِين عيّرهم الله تعالى فقال: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ} أي: يا هؤلاء، فحذف حرف النداء، وقيل: معناه التوكيد لأنتم.([[87]](#footnote-87))**

**أقول – جامعه: والتفسير ب(يا هؤلاء) أبلغ لأن فيه معنى التوبيخ والتعيير.**

**وقوله تعالى: {تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ} وضح معناها من رواية السدي الآنفة. {تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ} قرئ بتخفيف الظاء وتشديدها.([[88]](#footnote-88)) قال الواحدي: ومعنى تظاهرون تعاونون، ومنه قوله: {وَإِن تَظَاهَرَا عَليهِ} (التحريم: 4)، وقوله: {سِحرَانِ تَظَاهَرَا} (القصص: 48) أي: تعاونا على سحرهما، ومنه: {وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} (التحريم: 4)، أي: معين. وسُمي العون ظهيرًا لاستناد ظهره إلى ظهر صاحبه. وقوله تعالى: {بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} أي: تعاونون على أهل ملتكم بالمعصية والظلم. ومعنى العدوان: الإفراط والظلم، يقال: عَدَا عَدْوًا وعُدوانًا وعُدُوًّا وعِداءً. وقوله تعالى: {وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ} أي: إن أتوكم مأسورين يطلبون الفداء فديتموهم، وقُرئ: (أُسَارى) (وأَسرى) ([[89]](#footnote-89))، وهما جمع أسير. وأسير: فَعِيل في معنى مفعول، أى مأسور، كما تقول قتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح.**

**وقوله تعالى: {تُفَادُوهُم} قرئ أيضا بوجهين: (تفادوهم، وتفدوهم)([[90]](#footnote-90)) الأولى من المفاداة، والثانية من الفداء.**

**{وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ} و(هو) يُسمَّى ضمير الشأن والخبر ومعناه: والشان هنا والأمر أن إخراجهم حرام عليكم. قال الواحدي: ونظم الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وتخرجون فريقًا منكم من ديارهم، وهو محرّم عليكم إخراجُهم، وإن يأتوكم أسرى تَفْدُوهم.**

**يقول د/ عبد الكريم الخطيب: والأمر وإن بدأ متناقضا، إلا أنه مستقيم مع طبيعة هؤلاء القوم، التي تتحكم فيها الأنانية وحب الذات..**

**فالأخوّة عندهم ليست أخوة على إطلاقها، في السرّاء والضراء، وإنما هى أخوّة ما جلبت نفعا ذاتيا، وحققت مصلحة خاصة، أما إذا لم يكن ذلك من معطياتها فهى أخوّة ذئاب، إذا جرح ذئب فيها لم يحملوه، بل أكلوه! هذا شأنهم مع وصايا الرسل والأنبياء، ومع كل ما يحمل إليهم من أمر أو نهى.. يتخيرون ما يرضيهم، ويعرضون عما لا يقع منهم موقع الرضا والقبول، على المستوي المادي، وفي حدود الدائرة الذاتية، التي يعيش كل منهم فيها بنفسه ولنفسه! ([[91]](#footnote-91))**

## فائدة

**جاء في تفسير القرطبي (2/ 22) كلام نفيس:-**

**قال علماؤنا: كان الله تعالى قد أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أساراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك توبيخا يتلى إلى يوم القيامة فقال:{ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}!!**

**قلت- أى القرطبي رحمه الله: ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن، فتظاهر بعضنا على بعض! ليت بالمسلمين، بل بالكافرين! حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!.**

**قال علماؤنا: فداء الأسارى واجب وإن لم يبق درهم واحد. قال ابن خويز منداد: تضمنت الآية وجوب فك الأسرى، وبذلك وردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فك الأسارى وأمر بفكهم، وجرى بذلك عمل المسلمين وانعقد به الإجماع. ويجب فك الأسارى من بيت المال، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين، ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقين.انتهى فتأمل.**

**\*\*\***

**وهنا يتوجه الخطاب القرآني لهم ولأمثالهم في كل أمةٍ فيقول: {... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)} (البقرة: 85)**

**والخطاب هنا في صميم هذا الفصام النكد والمرض العضال من تقسيم الكتاب فيُؤمِن المتحايلون المتحللون ببعضه ويكفرون ببعضه الذي لا يواكب أهوائهم؛ والخطاب هنا وإن كان لليهود ابتداءً وعلى فعلهم نزل، ولكنه – بعمومه – يتناول كل أمةٍ وكل كتابٍ، فكل مَن فرَّق بين آيات الكتاب؛ أو بين الكتاب والسنة فقد عمَّه النذير وشمله الخطاب الشديد اللهجة في هذه الآيات، فقد رُوِيَ أنَّ عمر بن الخَطَّاب- رضي اللَّه عنه- قال: « إن بني إسرائيل قد مَضَوْا، وإنكم أنتم تُعْنَوْن بهذا الحديث » يريد هذا الحديث وما يجري مجراه..**

**وهذا هو الحاصل عند مَن خانه عقله وهواه وقضى الله بضلاله حين يأخذ جزءاً من الحق ويضرب به جزءاً آخر فيضل ويتيه لأنه لا يرى من الحق إلا ما وافق هواه، فكان ممتثلاً لهواه لا للحق.**

**وقوله تعالى: {فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ} استفهامٌ في معنى توبيخ. وقوله تعالى: {إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يعني: ما نال قُريْظة وبني النضير؛ لأن بني النضير أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مَساكنهم، وبني قريظة أُبيروا بقتل مقاتلهم، وسبي ذراريهم. والخزي: الهوان والفضيحة، وقد أخزاه الله: أي: أهانه وفضحه، وفي القرآن: {وَلَا تُخْزُونِ في ضَيْفِي} (هود: 230) أي: لا تفضحوني. قال أبو عبيد: يُقال: خزِي يخزى خِزيًا: إذا هلك.**

**وقال ابن السراج: معنى أخزاه الله، أي: أوقفه موقفا يُسْتحيَا منه، مِن قولهم: خزي يخزَى خِزَايَةً: إذا استحيا.**

**ثم أعلم الله عز وجل أن ذلك غير مكفِّر عنهم ذنوبهم، فقال: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ} والردُّ: الرجع. يقال: ردّه إلى كذا، أى رجعه،وإنما قال: (يُردّون) بلفظ الجمع لمعنى مَنْ. وفي (أشد العذاب) قولان:**

**أحدهما: أنه عذاب لا رَوْح فيه تتصل أجزاؤه، فلا يفتر أبدا عنهم.**

**والثاني: عذابٌ أشدّ من عذاب الدنيا بتضعيف الألم فيه.([[92]](#footnote-92))**

**قلتُ: أو أشد من عذاب غيرهم في النار بما اقترفوه من توثيق العهود عليهم ثم نقضهم لها على الإصرار. والعقاب بالخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة يشمل كل من فعل فعل أولئك الذين جعلوا القرآن عضين أى اجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.والعبرة عامة.**

**وقوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)}.تقرير لاحاطته تعالى بمكر الماكرين، وكفر الكافرين، تهديد ووعيد لهم على نبذهم كتاب الله وعهودهم خلف ظهورهم وهم يعلمون.**

**\*\*\***

**أما قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)}**

**يعني أولئك الذين أخبر الله عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، بفعلهم ما حرم الله عليهم، ونقضهم لعهد الله وميثاقه في التوراة إليهم. هؤلاء اشتروا رياسة الحياة الدنيا على الضعفاء وأهل الجهل والغباء من أهل ملتهم، في مقابل الإيمان... عن قتادة:أى استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة. أولئك لا يُخفَّف عنهم العذاب ولا ينصرهم في الآخرة أحد، لا بقوته ولا بشفاعته ولا غيرهما.**

**واشتروا: من الشراء. والشراء هنا مستعار. والمعنى استحبوا الدنيا على الآخرة، كما قال:{ فاستحبوا العمى على الهدى } (فصلت: 17) فعبر عنه بالشراء، لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه. ومعناه استبدلوا واختاروا. وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعا، لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئا بشيء. قال أبو ذؤيب:**

**فإن تزعميني كنت أجهل فيكم... فإني اشتريت الحلم بعدك بالجهل.**

**كما في ديوان أبي ذؤيب؛ يقول: إن كنت تزعمين أنى كنت أجهل في هواى لكم وصبوتي إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبوة حلما وعقلا، ورجعت عما كنت عليه.**

**فالشراء في هذه الآية مجاز عن اختيارهم واستحبابهم الدنيا الخسيسة على الآخرة، واستبدالهم ما يزول وينغص من خسيس الدنيا بما يخلد ويدوم من نعيم الآخرة. فكأنهم باعوا الإيمان والنعيم بثمنٍ بخسٍ وكانوا فيه من الزاهدين، واشتروا الكفر والعذاب لبئس ما يشترون. وبئس ما باعوا به أنفسهم بدنيا رخيصةٍ.**

**انشد القشيري في اللطائف: أناس أعرضوا عنّا... بلا جُرمٍ ولا معنى.**

 **فإن كانوا قد استغنوا... فإنّا عنهم أغنى.**

**&&&&&**

# وما زال العناد والهوى والإجرام شيمة القوم.

**قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)}.**

**ينعت، تبارك وتعالى، بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب - وهو التوراة- فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأوَّلوها على غير معناها الحق. وقد أرسل الله الرسل والنبيين من بعد موسى - عليه السلام - يحكمون بشريعته، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم- عليه السلام -، جاء بشريعةٍ للتخفيف عنهم، كما قال تعالى إخبارا عن عيسى: {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآيةٍ من ربكم} الآية (آل عمران: 50). ولهذا أعطاه الله من البينات، وهي: المعجزات الواضحات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بني إسرائيل وحسدهم له، وأرادوا ان يقتلوه، وهكذا كان دأب بني إسرائيل مع كل أنبياء الله عليهم السلام بالاستكبار، ففريقا يكذبونه، وفريقا يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا بكل حيلةٍ في مخالفتها.**

**\*\*\***

**كأنه يقول: اعلموا يا بني إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يد في تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع، وكان في ذلك وجهٌ لاعتذار بعض المتأخرين، فإن ذلك لا يتناولكم، فإن الرسل قد جاءتكم تترى ثم كان من أمركم معهم ما كان.([[93]](#footnote-93))**

**وفي الآيات انتقال من الاحتجاج على بني إسرائيل في فعالهم مع الرسول موسى عليه السلام بما قابلوه به من العصيان وتحريف التوراة؛ إلى الاحتجاج عليهم بسوء مقابلتهم للرسل الذين أتوا بعد موسى مؤيدين لدينه وشريعته، ثم جاء عيسى مؤيدا وناسخا ومبشرا فكانت مقابلتهم لأولئك كلهم بالإعراض والاستكبار، وتلك أمارة على أنهم إنما يعرضون عن الحق لأجل مخالفته أهواءهم، وإلا فكيف لم يجدوا في كل الرسل فيهم في تلك العصور ما يوافق الحق ويتمحض للنصح. وإن قوما هذا دأبهم يرثه الخلف عن السلف لجديرون بزيادة التوبيخ ليكون هذا حجة عليهم في أن تكذيبهم للدعوة المحمدية هو فقط عن مكابرة وحسد؛ إذ لو كانت معاندتهم للإسلام هي أولى فعلاتهم لأوهموا الناس أنهم ما أعرضوا إلا لما تبين لهم من بطلان دين محمد صلى الله عليه وسلم، فكان هذا مرتبطا بقوله:{وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)} (البقرة: 41)، ومقدمة للاحتجاج عليهم في مقابلتهم للدعوة المحمدية الآتي ذكرها في قوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88)} (البقرة: 88).([[94]](#footnote-94))**

**\*\*\***

**وقوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا } صدَّر الجملة بالقسم زيادة في الرد عليهم، والتأكيد على إنعامه تعالى عليهم ومقابلتهم إنعامه بالكفران والتكذيب.**

**قوله: {وَقَفَّيْنَا} أى أتْبعنا وأردفنا. من التقفية وهي المشي خلف القفا، قال ابن قتيبة: يقال: قفوت الرجل: إذا سرت في أثره. والمعنى في الآية: وأرسلنا على أثر موسى عليه السلام الكثير من الرسل، كقوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا}.**

 **وقوله: {مِن بَعْدِهِ} يحتمل أن الضمير عائد على موسى أو الكتاب.**

**قال الصاوي في حاشيته على الجلالين: قوله: {وَآتَيْنَا عِيسَى} معطوف على آتينا موسى وخص عيسى بالذكر، وإن كان داخلاً في قوله: {وقفينا من بعده بالرسل} لعظم شرفه ومزيته، ولكون رسولاً مستقلاً بشرعٍ يخصه لأنه نسخ بعض ما في التوراة، وللرد على اليهود حيث ادعوا أنهم قتلوه. انتهى.**

**وفي إضافة عيسى إلى أمه { عيسى ابن مريم} إبطال لما يزعمه اليهود من أن له أبا من البشر، أو انه ابن الله؛ تعالى الله عن ذلك.**

**\*\*\***

**والتأييد هو التقوية والإقدار على الرسالة، والصبر على أذى قومه، وهو مشتق من الْأَيْدِ وهو القوة، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ } (ص: 17)، و الْأَيْدُ مشتق من اليد؛ لأنها آلة القدرة والقوة.**

**\*\*\***

**وفي روح القدس ثلاثة أقوال:**

**أحدها: أنه جبريل. والقدس: الطهارة، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي في آخرين. والقول الثاني: أن روح القدس الاسم الذي كان يحيي به الموتى، رواه الضحاك عن ابن عباس. والثالث: أنه الإنجيل، قاله ابن زيد.([[95]](#footnote-95)) كما قال تعالى في القرآن: {روحا من أمرنا} (الشورى: 52).**

**قال الأستاذ محمد عبده: والمراد من الكل واحد، وهو أن الله - تعالى - أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى، وأعطاه ما لم يعط كل رسول من أولئك من الوحي أو من قوة الروح، وزكاء النفس ومكارم الأخلاق، ونسخ بعض الأحكام، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ سابقيه الذين لم يؤتَوْا من المواهب مثل ما أوتي.ا.ه**

**ويرى الزمخشري أن المراد {بروح القدس} أى بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود، ورجل صدق ووصفها بالقدس لأنها مما اختصه الله تعالى بنسبتها إليه خلقاً على التخصيص والتكريم كما قال تعالى: { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...الآية } (النساء: 171)، و {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} (التحريم: 12) اى من الروح المنسوبة إلينا بالخلق تكريما وتشريفا.**

**وتفسير (روح القدس) بأنه جبريل عليه السلام أولى، والتأييد به ظاهر لأنه الذي يأتيه بالوحي وينطق على لسانه في المهد وحين الدعوة إلى الدين وهذا الإطلاق أظهر هنا،**

**وفي الحديث الصحيح «أن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفي أجلها». قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبريل، لأن الله عز وجل أخبر أنه أيَّد عيسى به، كما أخبر في قوله: {إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} الآية (المائدة: 110). فذكر أنه أيده به، فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل، لكان قوله: {إذ أيدتك بروح القدس} {وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} تكرير قول لا معنى له، والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.**

**واستدل ابن كثير أن (روح القدس) هو جبريل عليه السلام، بقوله تعالى: {نزل به الروح الأمين\* على قلبك...الآية } (الشعراء: 193-195)، والحديث عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان بن ثابت منبرا في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ’’اللهم أيِّد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك’’.(رواه أحمد وأبو داود والترمذي)....**

**\*\*\*\***

**وقوله تعالى: {أفكلما جاءكم رسول.... الآية} تعقيبٌ عنيف من الحق تعالى بعدما مهَّد ببيان كفرهم وتكذيبهم، فالفاء للسببية، والاستفهام للتعجيب من طغيانهم ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة تساوى فيها خلفهم وسلفهم مما دل على أن ذلك سجيةُ سوءٍ في الجميع.**

**قال ا/ محمد عبده رحمه الله: كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوئ ثم يوبخون عليها، ولكن طواها في الخطاب وأدمجها في الاستفهام لتفاجئ النفوس بقوة التشنيع والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ، وفي ذلك الإيماء إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لا يخفي خبرها، ولا تغيب عن الإنكار صورها، فلا ينبغي الإلماع إليها إلا في سياق تقريع مجترحيها، وهذا من إيجاز القرآن الذي لا يعرج إليه فكر الإنسان..([[96]](#footnote-96))**

**{ استكبرتم} والاستكبار الاتصاف بالكبر، وهو هنا الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل ويكونوا أتباعا لهم، (فالسين والتاء) في {استكبرتم} للمبالغة كما تقدم في قوله تعالى: {إلا إبليس أبى واستكبر} (البقرة: 34). والتكبر ينشأ عن الاعجاب بالنفس الذي هو أثر الجهل بها. وهو من الصفات التي متى تمكنت في النفس أوردتها المهالك، وساقتها إلى سوء المصير.**

**وقوله: {ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون} سببه الاستكبار فالفاء للسببية؛ فإنهم لما استكبروا بلغ بهم العصيان إلى حد أن كذبوا فريقا أي صرَّحوا بتكذيبهم أو عاملوهم معاملة الكاذب، وقتلوا فريقا، وهذا كقوله تعالى عن أهل مدين: {قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك } (هود: 9).**

**وقدَّم تكذيبهم للرسل على قتلهم إياهم، لأن التكذيب أول ما يصدر عنهم من الشر.**

**وتقديم المفعول هنا { ففريقا كذبتم...} لما فيه من الدلالة على التفصيل والتقسيم؛ كما في قوله تعالى: {فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة} (الأعراف: 30). وهذا استعمال عربي كثير في لفظ (فريق) وما في معناه نحو (طائفة) إذا وقع في مقام التقسيم نحو قوله تعالى: {يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم }(آل عمران: 159).**

**\*\*\***

 **وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع { تقتلون} التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة، وتمثيلها للسامع حتى يمثلها في الخيال، وإن مرت عليها القرون والأحوال؛ لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها، ودماء لا تطير رغوتها، وإن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة؛ لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها، يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به، فيكون له من التأثير ما يناسبه.([[97]](#footnote-97))... أقول: ومثله في القرآن كثير كقوله تعالى: {الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه }(الروم: 48) مع ما في صيغة تقتلون من مراعاة الفواصل فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم.**

**قال ابن المنير السكندري في حاشية الكشاف ([[98]](#footnote-98)): والتعبير بالمضارع يفيد ذلك الاستحضار للحال دون الماضي، كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63)} (الحج: 63) فعبر بالماضي ثم قال: {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}، فعدل عنه إلى المضارع إرادة لتصوير اخضرارها في النفس. وعليه قول ابن معديكرب يصور شجاعته وجرأته:**

**فانى قد لقيتُ القرن أسعى... بسهب كالصحيفة صحصحان.**

**فآخذه فأضربه فيهوى... صريعا لليدين وللجران.**

**(قلتُ: فعدل عن صيغة الماضي في قوله ’’ لقيت’’ إلى تصوير المشهد في النفس بصيغة الحال ’’أسعى، فآخذه، فأضربه، فيهوي’’. فيالها من بلاغة التعبير القرآني الراقية واستعماله لأرقى أساليب التأثير في النفس بطريقة استحضار الصورة والمشهد حياً في الوجدان والشعور بطريقةٍ بلاغية لطيفة.) أو لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل -أيضا-لأنهم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم بالسم والسحر، وقد قال، عليه السلام، في مرض موته: ’’ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري’’، وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره.**

**\*\*\***

# {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}

**قال تعالى: { وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ (88)}**

**هذا من جملة تفصيل الاستكبار عند القوم أنه: تكذيبٌ وتقتيلٌ ثم إعراضٌ.**

**فمن ناحية الخطاب ودلالته ففيه التفاتٌ من ضمير الخطاب إلى الغيبة، وإبعادٌ لهم عن مقام الحضور، ونكتته أن ما جرى على المخاطَب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال، فيُشار إلى هذا الإبعاد بخطاب البعد..و نظير هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة بعد إجراء صفات النقص قول الشاعر يذم من بخل في قضاءِ مهمٍ:**

**أبى لك كسْبُ الحمدِ رأيُ مقصرٍ... ونفسٌ أضاق الله بالخير باعَها.**

**إذا هي حثَّتْهُ على الخير مرةً... عصاها، وإنْ همَّت بشرٍّ أطاعها.**

**وقد حسن الالتفات هنا أيضاً أنه يؤذِن بانتقال الكلام إلى سوء مقابلتهم للدعوة المحمدية، وهو غرض جديد.. فإنهم لما تحدث عنهم بما هو من شؤونهم مع أنبيائهم وجَّه الخطاب إليهم، ولما أُريد الحديث عنهم في إعراضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم صار الخطاب جاريا مع المؤمنين وأُجرى على اليهود ضمير الغيبة.([[99]](#footnote-99))**

**قال المفسرون في قوله تعالى: {وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ} قرأ الجمهور بإسكان اللام، وقرأ قومٌ منهم الحسن وابن محيصن بضمها.**

**( والغُلْف (بسكون اللام) جمع أغلف، المراد به هنا: الذي عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام إليه، ومنه غلفت السيف، أي جعلت له غلافا. قال في الكشاف: هو مستعار من الأغلف الذي لم يُختَن كقوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ}( فصلت: 5 ). وقيل: إن الغلُف (بضم اللام) جمع غلاف مثل حمار وحُمُر، أي قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك، وقد وعينا علما كثيرا.([[100]](#footnote-100))**

**قال الراغب: فعلى الأول قيل معناه: معناه: قلوبنا مغطَّاةٌ عما تدعونا إليه فلا نفهمه. وعلى الثاني: قلوبنا أوعية للعلم لا تسمع علماً إلا وعته إلا ما تقول، بمعنى أن ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم ليس بعلمٍ...**

**ورد الله تعالى ذلك عليهم بأن ذلك لكونهم مبعَدِين عن العلم لسوء فعلهم، وقد تقدم أن سبب المانع من الفضيلة سببان: أحدهما: ابتداؤه ليس من جهة الإنسان نفسه، وهو معذور فيه كمرتكب قبيح لزوال عقله بجنونٍ أو مرض، والثاني: ابتداؤه من جهته، وهو مأخوذٌ به كمرتكب ذنبٍ لسكره. فبيَّن الله تعالى أن قلوبهم ممنوعة عن العلم بكفرهم وذلك من جهتهم، وقوله: {فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ} أي لم يؤمنوا إلا إيمانا قليلاً أو زمانا قليلا، وذلك غير معتَدٍّ به، لأن الإيمان هو التصديق المخصوص، ومتى لم يحصل كمالاً لم يُعْتَدُّ به، ولذلك عظَّم سبحانه عقوبة ذلك بقوله: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}. انتهى ([[101]](#footnote-101))**

**والمعنى أن الله لعنهم وكان هذا اللعن سببا لقلة إيمانهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، وقلة الإيمان ترجع إلى معنى أنهم لا يؤمنون إلا بقليل مما يجب عليهم الإيمان به. وقد وصفهم الله- تعالى- فيما سبق بأنهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.**

**أو يُقال أنهم يؤمنون زمنا قليلاً ثم ما يلبثون أن يعودوا لكفرهم، أو أن قليلا منهم الذين يؤمنون. ف(قليلا) هنا صفةٌ (نعت لمصدر محذوف) تعود على الزمان أو الأشخاص أو نفس الإيمان.**

 **(وقال سبحانه في النساء: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)} إلى آخر القصة فأخبر بذنوبهم التي استحقوا بها ما استحقوه. ومنها قولهم: {قلوبنا غلف}. فعلم أنهم كاذبون في هذا القول قاصدون به الامتناع من الواجب؛ ولهذا قال: {بل لعنهم الله} و {طبع الله عليها بكفرهم} فهي وإن سمعت الخطاب وفقهته لا تقبله ولا تؤمن به لا تصديقا له ولا طاعة وإن عرفوه كما قال سبحانه في البقرة: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) }. ف (غُلْف جمع أغْلَف. وأما ’’ غلُف ’’ بالتحريك فجمع غلاف، والقلب الأغلف بمنزلة الأقلف. فهم ادعوا ذلك وهم كاذبون في ذلك واللعنة هى الإبعاد عن الرحمة فلو عملوا به لرُحِموا؛ ولكن لم يعملوا به فكانوا مغضوبا عليهم ملعونين، وهذا جزاء من عرف الحق، ولم يتبعه وفقه كلام الرسل ولم يكن موافقا له بالإقرار تصديقا وعملا.([[102]](#footnote-102))**

**فإن التعلل بالقضاء والقدر والاحتجاج به على الكفر وتنكب الصراط هو ديدن إبليس وأشباهه وأتباعه في كل أوان. فإن قدر الله حقٌ، وهو نافذ، ولكن الله تعالى لا يمنع إيمانَ من يبغي إيماناً، وإنما يطبع سبحانه على قلب الكافر بكفره جزاءاً وفاقاً {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (الصف: 5) فعاقبهم سُبْحَانَهُ بازاغة قُلُوبهم عَن الْحق لما زاغوا عَنهُ ابْتِدَاءً، وَنَظِيره قَوْله تَعَالَى {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} (الأنعام: 110)، وَلِهَذَا قيل من عرض عَلَيْهِ حق فَرده فَلم يقبله عُوقِبَ بِفساد قلبه وعقله ورأيه.**

**\*\*\***

**قال ابن عاشور: والغُلْف بضم فسكون جمع أغلف وهو الشديد الغلاف مشتق من غلَّفه إذا جعل له غلافا.**

**وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم للإسلام قصدوا به التهكم وقطع طمعه في إسلامهم وهو كقول المشركين: {قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه } (فصلت: 5). وفي الكلام توجيه لأن أصل الأغلف أن يكون محجوبا عما لا يلائمه فإن ذلك معنى الغلاف فهم يخيِّلون أن قلوبهم مستورة عن الفهم ويريدون أنها محفوظة من فهم الضلالات. ولذلك قال المفسرون: إنه مؤْذِن بمعنى أنها لا تعي ما تقول ولو كان حقا لوعته، وهذان المعنيان اللذان تضمنهما هذا التوجيه يلاقيهما الرد بقوله تعالى: {بل لعنهم الله بكفرهم} أي ليس عدم إيمانهم لقصور في أفهامهم، ولا لعلوها عن قبول مثل ما دعوا إليه، ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وأبعدهم عن الخير وأسبابه.**

**وبهذا حصل المعنيان المرادان للمفسرين من غير حاجةٍ إلى فرض احتمال أن يكون (غلْف) بالتحريك جمع غلاف لما فيه من التكلف في حذف المضاف (= يقولون: ذوات غُلُف) حتى يُقدَّر أنها أوعية للعلم والحق فلا يتسرب إليها الباطل.**

**وقوله: {بل لعنهم الله بكفرهم} تسجيل عليهم وفضح لهم بأنهم صمموا على الكفر والتمسك بدينهم من غير التفاتٍ لحجة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما صمموا على ذلك عاقبهم الله باللعن والإبعاد عن الرحمة والخير فحرمهم التوفيق والتبصر في دلائل صدق الرسول، فاللعنة حصلت لهم عقابا على التصميم على الكفر وعلى الإعراض عن الحق.([[103]](#footnote-103))**

 **وفي ذلك رد لما أوهموه من أن قلوبهم خُلقت بعيدة عن الفهم لأن الله خلقهم كسائر العقلاء مستطيعين لإدراك الحق لو توجهوا إليه بالنظر وترك المكابرة. وهذا معتقد أهل الحق من المؤمنين عدا الجبرية. ([[104]](#footnote-104))**

**إن أعظم الذنوب ما تكون عقوبة الله تعالى عليها الإلزام بذنوب أشد منها، فأعقب استكبار اليهود على الأنبياء وتكذيبهم وقتلهم أن الله لعنهم وطبع على قلوبهم، فلا يفقهون الحق ولا يقبلونه.([[105]](#footnote-105))**

**ويقول علماء السلف: إن من بركة الحسنة وعلامة قبولها الحسنةُ تتبعها. وإن من شؤم المعصية وعقابها المعصية تتبعها.**

**\*\*\***

**ومن مباحث اللفظ في الآية { فقليلا ما يؤمنون}: أن كثيرا من المفسرين يزعمون أن (ما) زائدة وما هي بزائدة وفاقا لابن جرير الطبري، وجل القرآن أن يكون فيه كلم زائد، وإنما تأتي (ما) هذه لإفادة العموم تارة ولتفخيم الشيء تارة، ويقول ابن جرير: إنما يؤتى بها في مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم، كأنه قال: فإيمانا قليلا ذلك الذي يؤمنون به. وأما التي لتفخيم الشيء فكقوله - تعالى -: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ} (آل عمران: 159) أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم، وقد بين - تعالى - هذه الرحمة بقوله في وصفه - صلى الله عليه وسلم -: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (التوبة: 128).([[106]](#footnote-106))**

# {...فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ...}

**قال عز وجل: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)} (البقرة: 89 – 91)**

**إن الحق عند القوم ليس حقّا لأنه حق في ذاته، وإنما يكون حقّا يأخذون به، ويلتزمونه، إذا هو حقق لهم نفعا عاجلا، وكسبا ذاتيا، وإلا فهو باطل الأباطيل، يسلقونه بألسنتهم، ويرمونه بأيديهم.. هكذا هم في قديمهم، وكذلك هم في حديثهم!.**

**كان علمهم من التوراة يحدثهم بأن نبيا سيظهر في العرب، وأن الله قد أخذ على الأنبياء، وعلى أتباع الأنبياء، الميثاق أن يكونوا مع هذا النبىّ إذا ظهر، وجاءهم بكتاب مصدق لما معهم من التوراة والعلم.. وقد تحدّث اليهود إلى العرب بهذا، وبأنهم سينتصرون لهذا النبىّ ويكونون معه وبه قوة على العرب المشركين.. فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وبدأ دعوته بعشيرته الأقربين امتثالا لقوله تعالى «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (214: الشعراء) وحين سبق إلى الإيمان به نفر من قومه، تردد اليهود وتوقفوا، ثم لما أن سبقهم الأنصار من الأوس والخزرج إلى الإيمان، تنمّروا وتنكروا، وأخذوا يمكرون بالدعوة الإسلامية، ويظاهرون مشركى قريش عليها، إذ أن سبق من سبق من المهاجرين والأنصار قد فوّت عليهم الاستيلاء على الدّعوة وحجزها في محيطهم وحدهم دون الناس، لأنهم يريدون أن يستولوا على كل شىء، ويستأثروا بكل شىء، فإن كان أمر لأحد معهم فيه نصيب أعلنوا الحرب عليه، وحاولوا إفساده بكل سبيل، حتى لا ينتفع به!.**

**ولهذا تشوهت دعوة الإسلام في أعينهم ويتحول الحق الذي عرفوه إلى باطل، يأتمرون به ويحاربونه، سرا وجهرا. وقد سجّل الله سبحانه وتعالى عليهم هذا الموقف اللئيم في قوله سبحانه: «وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ... الآية».ا.ه. ([[107]](#footnote-107))**

**هكذا كان ولا زال وسيظل إيمان القوم « فقليلا ما يؤمنون ».. إيمانُ وقتٍ دون وقت، إيمانٌ على قدر المنفعة الدنيوية العاجلة ووِفقَها، إيمانُ قلةٍ منهم دون الكثرة الغالبة الذين تحكمهم الشهوات والهوى والمادة. ولعل هذا هو أوجه وجهٍ للجمع بين هذه الآيات، وما قبلها في سياقِ تفصيلِ شيمة القوم وديدنهم في عبادة الهوى والدنيا والرياسة.**

**كما إنه في إطار الاحتجاج عليهم، والتوبيخ المتنامي إزاء موقفهم من دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنمر والاستكبار عليها كما هو ديدنهم من دعوات الأنبياء عليهم السلام وكلها في إطارها العام تقع تحت قوله تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } (البقرة: 87).**

**والخطاب لهم توبيخا، وهو لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه والمؤمنين تسليةً تثبيتاً أن هذه شيمة القوم وطبعهم في الكيل بمكيالين على حسب المنفعة الخسيسة ووفقها.**

**فقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}وَلَمَّا جاءَهُمْ يعني اليهود كِتابٌ يعني القرآن {مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ }وَتَصْدِيقُهُ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ أَنَّهُ يُخْبِرُهُمْ بِمَا فِيهِمَا وَيُصَدِّقُهُ وَلَا يُخَالِفُهُ. وقصد به زيادة المذمة في هذا الكفر بكتاب الله الذي يوافق أصول ما عندهم، وهم يعلمون، ومثله عند قوله تعالى: {وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم} (البقرة: 41).**

**جاء في تفسير المنار: والاستفتاح في قوله: (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) معناه طلب الفتح وهو الفصل في الشيء والحكم، ويستعمل بمعنى النصر؛ لأنه فصل بين المتحاربين، وكانت اليهود تستفتح على مشركي العرب بالنبي المنتظر، يقولون: إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذي نحن عليه، ويخذل الوثنية التي تنتحلونها ويبطلها، فيكون مؤيدا لدين موسى.**

**أقول: روى محمد بن إسحاق عن أشياخ من الأنصار أن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة، قالوا: كنا قد علوناهم قهرا دهرا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبيا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم... إلخ. وروى الضحاك عن ابن عباس في تفسير (يستفتحون): يستنصرون، يقولون: نحن نعين محمدا عليهم... إلخ.وتتمته في تفسير العماد ابن كثير.**

**وشذ بعضهم كالبغوي في تفسيره فقال: إنهم كانوا يقولون إذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة والإنجيل، فكانوا يُنصرون، وفيه روايات ضعيفة عن ابن عباس، لم يعرِّج ابن كثير على شيء منها، ولعله تركها لأنها على ضعف روايتها ومخالفتها للروايات المعقولة شاذة المعنى - بجعل الاستفتاح دعاء بشخص النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي بعض الروايات ’’ بحقه ’’ وهذا غير مشروع، ولا حق لأحد على الله فيُدعَى به، كما قال الإمام أبو حنيفة وغيره، وكذلك فعل ابن جرير، لم يذكر شيئا من روايات الدعاء بحقه والاستنصار بشخصه، بل ذكر عدة روايات في أنهم كانوا يدعون الله بأن يبعثه ليقتل المشركين، وفي بعضها أنهم كانوا يرجون أن يكون منهم، والكلام هنا في مجيء الكتاب لا في مجيء الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي يأتي ذكر مجيئه قريبا، على أنهما متلازمان.([[108]](#footnote-108))**

**{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} أي امتنعوا من الإيمان به خوفا من زوال رئاستهم وأموالهم. وأصرّوا على الإنكار مع علمهم بحقيقة نبوته. قال تعالى: {فلعنة الله على الكافرين} ولم يقل عليهم؛ لأن الإظهار هنا والتأكيد لكفرهم مرةً بعد مرة أبلغ وأعم وأشمل من الإشارة بالضمير.**

**روى البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ» قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ذَاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ’’ أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلَدِ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا ’’ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ اليَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ البَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ» قَالُوا أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ. (أي ذموه وطعنوا فيه).**

**وروى كذلك البخاري في باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: فَخَرَجَ (أى عبد الله بن سلام) فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ اتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ، فَقَالُوا: كَذَبْتَ، فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

**\*\*\***

**ويُفضَح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:**

**«بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ، بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ. فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ، وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ»..**

**بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا... لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل. أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا تمثيلاً وتصويراً. لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين. وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه! وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وكان هذا بغياً منهم وظلماً فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم.**

**وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً.. وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ويتربصون بالبشرية الدوائر ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفيء، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس.. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: «بَغْياً.. أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»..**

**«وَإِذا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا، وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ»..**

**وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام. كانوا يقولون «نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا»..**

**ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه. سواء ما جاءهم به عيسى عليه السلام، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين.**

**والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ»..**

**وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم. لا بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به... ويلقن الله نبيه- صلى الله عليه وسلم- أن يجبههم بهذه الحقيقة، وكشفا لموقفهم وفضحاً لدعواهم:**

**«قُلْ: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؟»..**

**لم تقتلون أنبياء الله من قبل، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أُنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدَّعون أنكم تؤمنون به؟**

**لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى- نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر-:**

**«وَلَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظالِمُونَ»..**

**فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاء كم موسى بالبينات، وفي حياة موسى نفسه، كان من وحي الإيمان؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم؟ ([[109]](#footnote-109))**

## نكت المعاني والفوائد

**وقوله تعالى: { بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ...}**

**و’’ما ’’ في ’’ بئسما’’ نكرة بمعنى ’’ شيئا’’ تميزا لفاعل بئس، والمخصوص بالذم {أَنْ يَكْفُرُوا} أَيْ كُفْرهمْ. أى بئس هذا الشئ الذي باعوا به أنفسهم وهو الكفر الذي يخلدهم في النار، فكأنهم لم يقبضوا ثمنا لبيع أنفسهم غير الكفر. وفائدة ’’ ما’’ هنا التحقير لشأن كل ما يخسر الإنسان نفسه من أجله وخصوصا المتاع الزائل بكفره.**

**و{اشتروا} قال الفراء: معناه- والله أعلم- باعوا به أنفسهم. وللعرب فِي شروا واشتروا مذهبان، فالأكثر منهما أن يكون شروا: باعوا، واشتروا: ابتاعوا، وربما جعلوهما جميعا فِي معنى باعوا، وكذلك البيع يقال: بعت الثوب. على معنى أَخْرَجَتهُ من يدي، وبعته: اشتريته، وهذه اللغة فِي تميم وربيعة. سمعت أَبَا ثروان يقول لرجل: بع لي تمرا بدرهم. يريد اشتر لي وأنشدني بعض ربيعة:**

**ويأتيك بالأخبار من لم تبِعْ له... بتاتًا ولم تضرب له وقت موعدٍ.**

**على معنى لم تشتر له بتاتا قال الفراء: والبتات الزاد. ([[110]](#footnote-110))**

**أقول: أو فيه معنى آخر: أنهم اشتروا بحسب ظنهم الفاسد، فإنهم ظنوا أنهم اشتروا أنفسهم بما يسروا لها من المتاع الزائل والرياسة المؤقتة والعرض الهالك، ولم ينظروا – بسفههم – في الثمن الذي دفعوه وهو كفرهم الذي يودي بهم إلى هلاك الأبد وتعاسةٍ تدوم.**

**وما { أنزل الله } هنا المقصود به رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن الذي جاء به. أو ما عندهم من نعت الرسول ورسالته.**

**\*\*\*\***

**وأما قوله تعالى: {بَغْيَاً } البغى هو التجاوز في الطلب. يقال: بَغَيْتُ الشيء: إذا طلبت أكثر ما يجب، وابْتَغَيْتُ كذلك، قال الله عزّ وجل: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ} (التوبة/ 48)، وقال تعالى:{يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} (التوبة/ 47). فإذا كان طلبا في الحق فمحمود، وإن كان طلبا للباطل فمذموم كما قال تعالى: { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ }(الشورى/ 42)، فخصّ العقوبة ببغيه بغير الحق. ([[111]](#footnote-111))**

**ويهود هنا يطلبون ويبغون ما ليس لهم من نبى آخر الزمان أن يكون فيهم حسداً من عند أنفسهم، واعتراضا على الله تعالى {أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}،فهو تعليل لكفرهم لا لشرائهم، أي كفروا به لمحض البغي الذي أثاره الحسد. لذلك فسر علماء السلف { بغيا} هنا بسببها الدفين في نفوسهم وهو الحسد والحقد، وهذه عادة يعرفها من تمرس على تفسير السلف أنهم يبحثون في القرآن عن المعاني لا عن حل الألفاظ لغويا، فتنبه.**

**\*\*\*\***

**وأما قوله تعالى {فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ } يقول العلامة القاسمي رحمه الله:**

**أي رجعوا لأجل ذلك بغضب، في حسدهم لهذا النبي صلّى الله عليه وسلّم حتى كفروا به عَلى غَضَبٍ كانوا استحقوه قبل بعثته صلّى الله عليه وسلّم من أجل تحريفهم الكلم، وتضييعهم بعض أحكام التوراة، وكفرهم بعيسى عليه السلام.**

**قال الرازيّ: إن غضبه تعالى يتزايد ويكثر ويصح فيه ذلك كصحته في العذاب، فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة، كغضبه على من كفر بخصال كثيرة.**

**قلت – أى القاسمي: وفي الصحيحين عن أبي هريرة: «اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك لا ملك إلا الله».**

**. والروايات في توصيف غضبه تعالى بالشدة على بعض المنكرات متوافرة. انظر الجامع الصغير.**

**ويحتمل المعنى: أى فصاروا أحقاء بغضب مترادف، فلا يكون القصد إثبات غضبين لأمرين متنوعين أو أمور، بل المراد به تأكيد الغضب وتكثيره لأجل أن هذا الكفر، وإن كان واحدا، إلا أنه عظيم. والله أعلم.**

**وقد قدمنا في تفسير قوله تعالى: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} أن الغضب صفة وصف الله تعالى نفسه بها. وليس غضبه كغضبنا. كما أن ذاته ليست مثل ذواتنا، فليس هو مماثلا لأبداننا ولا لأرواحنا، وصفاته كذاته سبحانه.**

**وما قيل: إن الغضب من الانفعالات النفسانية، فيُقال: نحن وذواتنا منفعلة، فكونها انفعالات فينا لا يجب أن يكون الله منفعلا بها. كما أن نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين. فصفاته كذلك ليست كصفات المخلوقين، ونسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه. وليس المنسوب كالمنسوب، والمنسوب إليه كالمنسوب إليه. كما**

**قال صلّى الله عليه وسلّم: «ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر» «رواه البخاري»**

**فشبه الرؤية بالرؤية لا المرئيّ بالمرئيّ. وهذا يتبيّن بقاعدة: وهي أن كثيرا من الناس يتوهم، في بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين. ثم يريد نفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير:**

 **أحدها: كونه مثّل ما فهمه من النصوص لصفات المخلوقين. وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.**

 **الثاني: أنه إذ جعل ذلك هو مفهومها وعطّله فبقيت النصوص معطلة. عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله فيبقى مع جناية على النصوص، وظنه السّيئ الذي ظنه بالله ورسوله، حيث خلاف الذي يفهم من كلامهما، من إثبات صفات الله والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى.**

 **الثالث: أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير دليل.فيكون معطّلا عما يستحقه الرب تبارك وتعالى.**

 **الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الموات والجمادات وصفات المعدومات. فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب. ومثّله بالمنقوصات والمعدومات. وعطّل النصوص عما دلت عليه من الصفات. وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات. فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل. سبحانه وتعالى عما يقول الظّالمون علوّا كبيرا. أفاده الإمام ابن تيمية. عليه الرحمة، في القاعدة التدمرية.([[112]](#footnote-112))**

**\*\*\***

**قوله سبحانه: {وَلِلْكافِرِينَ} أي لهم. وإنما كان الإظهار هنا في موضع الإضمار لبيان أن كفرهم هو السبب الأول لما حاق بهم من الغضب والعذاب.**

**وقوله: {عَذابٌ مُهِينٌ} أى يُراد به إهانتهم، وإذلالهم. ومن بلاغة القرآن العظيمة أن العذاب يوصف على حسب الجرم والسياق فتارةً يكون { عذاب عظيم} مكافئاً لعظمة الجرم، وتارة يكون{ عذاب أليم} مقابلاً لإيلام الكفار للمؤمنين جسديا ونفسياً، وهو هنا {عَذابٌ مُهِينٌ}**

 **فإن كفرهم، لما كان سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الآخرة كما قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ } (غافر: 60) أي صاغرين حقيرين، فقابل الاستكبار بالذلة والصغار. فتأمل عظمة ودقة وبلاغة القرآن العظيم في استخدام تراكيبه ودلالاته وسياقها متآخية تخاطب الوجدان والشعور والعقل على أعلى المستويات. فالحمد لله رب العالمين.**

**\*\*\***

# ادعاءٌ كاذب

**{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)} (البقرة: 91)**

**{وَإِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ} أيّ صدِّقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهم يهود أهل المدينة ومن حولها. {قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا} في التوراة وبموسى- عليه السلام- {وَيَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ} يعني بما سواه وهو القرآن. {وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ} أي القرآن هو الصدق، وهو منزَّل من الله تعالى موافق لما معهم (مما لم تطاله يد التحريف)، وفي أصول العقيدة والأخلاق، فإنهم إذا جحدوا بالقرآن صار جحوداً لما معهم، لأنهم جحدوا بما هو مصدق لما معهم، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك لم تأتنا بمثل الذي أتانا به أنبياؤنا.**

**قال الله تعالى يرد عليهم ويوبخهم: {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ} وقد جاءوا بالبينات أي بالعلامات {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أي إن كنتم تعون أنكم مصدقين بالأنبياء.**

**فهذا اللفظ للمستأنف وهو قوله {فَلِمَ تَقْتُلُونَ} ولكن المراد منه الماضي وإنما خاطبهم وأراد به آباءهم.**

**وفي الآية دليل أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها، لأنهم كانوا راضين بقتل آباءهم الأنبياء، فسماهم الله تعالى قاتلين.**

**وفي الآية دليل أن من ادعى أنه مؤمن، ينبغي أن تكون أفعاله مصدِّقة لقوله، لأنهم كانوا يدَّعون أنهم مؤمنون بما معهم. وأي دينٍ وأى إيمان جُوَّز فيه قتل الأنبياء؟.([[113]](#footnote-113))**

**وقوله تعالى: {قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ... الآية} ردٌ من الله تعالى عليهم في أنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيبٌ منه سبحانه لهم في ذلك، واحتجاج عليهم. فإن النبوة والكتاب لا يختلف من حيث ما هو نبوة وكتاب، ومن لم يؤمن ببعضه، فهو في حكم من لم يؤمن بشيء منه، ولهذا قال الله لهم آنفاً: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}، فأثبت لهم أشد العذاب الذي يستحقه الكافر المطلق..**

**و{ تقتلون} هنا كما بيَّنا بنظيره آنفا؛ أن استعمال صيغة المضارعة في التعبير عن قتل آبائهم الأنبياءَ في الماضي هو لعدة أمور: 1- أنهم على دين آبائهم وديدنهم في الاعتقاد الباطل والعمل الفاسد المفسد، فصح أنهم مثلهم ومعهم مشتركون في كل جرم فعلوه، فخوطبوا به.**

**2-أن لشناعة فعلهم وقتلهم أنبياء الله فجوراً وكفراً لزم استحضار تلك الصورة لذلك الجرم البشع على صيغة الحاضر.**

**3-أنهم ما زالوا في تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كذبوا الرسل من قبل، فصح خطابهم بفعل آبائهم الذين سنُّوا لهم تلك السنة المردية المهلكة.**

**كما أن عادة العرب إذا أرادوا أن يخبروا عن تعاطي فعلٍ مُداوَمٍ عليه قرنوا لفظ الماضي بالمستقبل تنبيها على المداومة عليه نحو قول الشاعر:**

**ولقد أمُرُّ على الَّلئيم يسبنُّي...فمضيتُ ثَمَّة قُلتُ لا يعنينِي.**

 **كما أنه في اللغة الفصيحة جائزٌ سوق الماضي بمعنى المستقبل، وسوق المستقبل بمعنى الماضي. قال الحطيئة:**

 **شهد الحطيئة يوم يلقى ربه... أن الوليد أحق بالعذر.**

**وفائدته البلاغية أن الإتيان بالمستقبل في صيغة الماضي يفيد الثبات كأنه حصل. ومنه قول الله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1النحل)} فكيف يستعجل ما قد أتى، لكن الأمر في صدق وقوعه وحقيَّته كأنه أتى.**

**وهذا مما يعرفه الذين يمارسون لغة العرب ويتذوقونها. وليس مجرد الحفظ الجاف للقواعد والإعراب. وتأمل لذلك قول سيبويه إمام أهل النحو في تعريف الفعل بلفظ موجز جامع يذكر فيه دلالات الفعل وليس مجرد صيغه ليعلم أن الصيغ تحددها البلاغة فيقول: ’’ وأما الفعل فأمثلة أُخذتْ من لفظ أحداث الأسماء، وبُنيتْ لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينَقطع’’. وليُعلم أن تقسيم الفعل إلى ماضي ومضارع وأمر هو للتقريب ليس إلا. كما تقول لابنك: تذهب إلى عمك، فإذا بلغت عنده فقل له كيت وكيت. فتأمل استعمال اللغة هنا يزول عجبك.**

**\*\*\***

## رحلة القرآن مع اليهود في سورة البقرة

**نعود لنتجول مع الآيات التي تمضي مع اليهود في سورة البقرة، والتي تخترق هنا الحجب النفسية لتفصح لنا عن الأسباب الخفية وراء نكوص القوم عن الإيمان بما كانوا هم أنفسهم يحاجُّون به أهل المدينة والمشركين من قبل، إنهم يريدونها لهم فقط، لأنهم يظنون أنهم شعب الله المختار، يريدون أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يريدون نبياً على مقاسهم يؤيد هواهم ويشجع نزواتهم، لا يريدون أن يلتزموا بأى شرعٍ بقوةٍ كما أُمروا، فيحرفون كلام الله تعالى من بعد ما عقلوه، يضعون دينهم بأيديهم، وتأخذهم اللجاجة لأبعد حدٍ حين تأمرهم أنبياؤهم بأمرٍ فيماطلوا ويجادلوا ويتشددوا ويستهزأوا بالرسل، هم أصلا يكذبونهم، ومَن لا يطاوعهم في غيِّهم من الرسل يقتلونه، وإن يوما قرروا الإيمان {فقليلا ما يؤمنون}، تجدهم يتحايلون للتملص من الشريعة، فيستحلون بحيلهم الحرام ويظنون من جهلهم أنهم خدعوا الله سبحانه. هكذا القوم كما تجولنا في نفسيتهم من خلال رحلة القرآن الممتعة في هذه السورة المباركة إلى ما بلغناه من الآيات.. وهنا نتوقف أمام آيات سورة القصص لنتبين تلك الوحدة التي تجمع سور القرآن وآياته في تلاحم وتناغم وتكامل رائع..**

**يقول تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) } [القصص: 46 - 50]**

**\*\*\***

# ما زال الحديث عن القوم ولجاجتهم

**قال تعالى: { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)} (البقرة 92-100)**

**كل حجّةٍ كانت تقطع على القوم سبيل الإفلات منها، كانوا يلقونها بوجه وَقَاح، لا حياء فيه.. فمع علمهم بأن دين الله واحد، ورسالات رسله تصدر جميعها عن هذا الدين، فإنهم إذا دعوا إلى الإيمان بما أنزل الله على رسله لوّوا رءوسهم، وقالوا: «نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا» !! كأنما يحسبون أن ما أنزل عليهم هو شرعٌ خصهم به من دون الناس، وجعل لهم به سلطانا على العباد.. وكذبوا وضلوا! فالكتاب الذي نزل على محمد يحوى مضامين ما أنزل على موسى وعيسى وما أنزل على النبيين جميعا، ولهذا أُمر أتباع محمد أن يؤمنوا بما أنزل على أنبياء الله، كما يقول القرآن الكريم، متوجها بهذا الأمر إليهم: «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (123: البقرة)، ومع هذا فهل آمن بنو إسرائيل بما أنزل عليهم حقّا؟ إذن فلم قتلوا أنبياءهم؟ ولم حادّوا الله ورسله مع الآيات البينات التي جاءتهم على يد الأنبياء؟**

**ولم عبدوا العجل بعد أن أراهم موسى من آيات ربّه ما تلين له الصمّ الجلاد! أفهذا هو الإيمان، وما يأمر به الإيمان؟.([[114]](#footnote-114))**

**سبق التذكير باتخاذ العجل في قوله - تعالى -: {وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة}الآية...( البقرة: 51) ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين في سياق آخر، أما اختلاف العبارة والأسلوب فظاهر، وأما السياق فقد كان أولا في تعداد النعم على بني إسرائيل وبيان ما قابلوها به من الكفران، وهو هنا في ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فهناك يقول إن النعم التي أسبغها الله عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه، وهاهنا يقول إن الآيات البينات على النبوة والوحدانية لم تزدكم إلا إيغالا في الشرك وانهماكا في الوثنية، فكيف تعتذرون عن عدم الإيمان بمحمد بأنكم لا تؤمنون إلا بما أنزل إليكم وهذا شأنكم فيه؟ ومجموع الآيتين ينبئ بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع في هداية أكثرهم من جهة الوجدان، ولا من ناحية العقل والجنان... ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قد علم مما قلناه وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى - عليه السلام - ومعاملتهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - إذ قالوا: (قلوبنا غلف) وادعوا أنهم مأمورون بألا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة، وقد علم من هذه الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم في دعواهم، وأنه لا عذر لهم في ترك الإيمان. ([[115]](#footnote-115))**

## هنا مبحث في التكرار في القرآن الكريم وقيمته الفنية والدلالية.

**التكرار في اللغة تدور معانيه حول الإعادة، ويكون في الأفعال كتكرار الزيارة ونحوها، ويكون في الأقوال وهو إعادة الكلمة، أو الكلام مرتين أو أكثر، وهو المقصود لنا هنا؛ لأن التكرار فن يمارسه المتكلمون كثيرا فإذا دعت إليه حاجة، كان حسنا مقبولا، وإذا لم تدع إليه حاجة، ولم يفد فائدة جديدة كان عيبا مذموما وهو من الأساليب الشائعة في اللغة العربية، وفي غيرها من اللغات.**

**وقد عرّفه الفرّاء العالم اللغوي بقوله: «والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف» وسماه أبو عبيدة مجاز التكرار.([[116]](#footnote-116))**

**وعرض له الإمام الخطابي فقال:**

**«تكرار الكلام على ضربين:**

**مذموم وهو ما كان مستغنيا عنه، غيرُ مُستفادٍ به زيادة معنى لم يُستفَد من الكلام الأول، لأنه حينئذ يكون فضلا- يعنى فضلة- من القول ولغوا، وليس في القرآن شىء من هذا النوع.**

**والضرب الآخر- يعنى الممدوح- ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه، فيه إخلال بالبلاغة، مثل تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما، يحسن في الأمور المهمة، التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها، والاستهانة بقدرها».([[117]](#footnote-117))**

**وهو من الأساليب التربوية، لأن الكلام إذا تكرر تقرر في الذهن.**

**وقد ورد التكرار في القرآن الكريم بكثرة لخدمة المعاني وتوكيدها، ولوروده في القرآن دواع بلاغية متفاوتة، ومزايا فنية آسرة. وله صور يأتي فيها منها:**

**\* تكرار الأداة مثل «إن» و «ثم»**

**\* تكرار الكلمة، مثل «أولئك».**

**\* تكرار الجملة، مثل فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ.**

**\* تكرار الأوامر والنواهى، في العبادات والمعاملات وغيرهما.**

**\* تكرار القصة.([[118]](#footnote-118))**

**ولم يخل موضع واحد من مواضع التكرار في القرآن الكريم من فائدة عظيمة، وسر بلاغى من أجله كان التكرار، من ذلك:**

**\* تأكيد الإنذار في قوله تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ }.**

**\* تأكيد الإنكار، مثل قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ.**

**وقد تكررت هذه العبارة في سورة الرَّحْمنُ واحدة وثلاثين مرة، بعد تعديد نعم الله على الثقلين الإنس والجن ومع كثرة تكرارها تجد لها حلاوة في السمع، ووقعا في النفس، وحياة في القلب.**

**\* تأكيد التعجيب من صنع الله عز وجل بالمكذبين الضالين في قوله عز وجل: {فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ }.**

**\* تأكيد التنبيه وزيادته، كما في قوله تعالى: {وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ }. كرر يا قَوْمِ مؤكدا لهم هدايته إليهم سبيل الرشاد وقد تضمن هذا التكرار الإشارة إلى فناء الدنيا وفناء ما فيها من لذائذ ومشتهيات.**

**وقد يكرر اللفظ لطول الكلام مع زيادة التوكيد كما في قوله تعالى:**

**{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }.**

**فقد تكرر في هذه الآية العبارات الآتية:{إِنَّ رَبَّكَ} وقد تقدمت في صدر الآية.**

**بَعْدِها وقد تقدم عليها قوله مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وأفاد هذا التكرار فائدتين:**

**الأولى: تكرار التأكيد، ومن دواعى التأكيد مقامات الوعد والضمان.**

**الثانية: طول الفصل بين «إن» واسمها، وبين خبرها، وهو لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.**

**\* وقد يأتى التكرار لتفظيع وتهويل ما اقترفه المتحدث عنهم، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا }.**

**هذا التكرار المتواصل في الآية، فيه تفظيع لما كان يقترفه المنافقون من التذبذب بين الإيمان والكفر، ثم إيثارهم الكفر على الإيمان في عاقبة أمرهم في الحياة الدنيا.**

**أما التكرار في القصة القرآنية فأسراره البلاغية لا تحصر، ويكفي أن نشير إلى ملامح عامة جاء التكرار في إطارها.**

**فأولا: لم تكرر قصة في موضعين أو أكثر على نمط واحد قط.**

**وثانيا: يتراوح تكرار القصة القرآنية بين الطول والقصر.**

**وثالثا: كل صورة ترد عليها القصة المكررة تحمل جديدا في الصياغة والمعنى لم يرد في غيرها.**

**ورابعا: كل نمط من أنماط التكرار مناسب للمقام الذي ورد فيه.([[119]](#footnote-119))**

**وإن قال لي أحدهم فما سبب التكرار في القرآن؟**

**قلت له: هل يمكن أن تصور الجامع صورة واحدة تظهر كل جوانبه. قال: لا... لا بد من عدة لقطات من جوانب مختلفة.**

**قلت: هذا سر التكرار في القرآن.**

**حتى قول الله تعالى في سورة الرحمن ((فبأي آلا ربكما تكذبان)) وهي أكثر آية تكررت في سورة واحدة... فإن كل مرة تذكر فيها تشير إلى أمر يغاير ما سبقت له في المرة السابقة فهي بعد كل مقطع قرآني في السورة تذّكر بالنعمة التي أشار لها المقطع والقارئ الفاهم للقرآن لا يصعب عليه إدراك ذلك..**

**أما التكرار في القصة ومثاله قصة الناقة؛ وقد ذكرت في السور الآتية (الأعراف. هود. الإسراء. الشعراء. القمر. الشمس. ثم ذكرت في النمل والحجر وفصلت والحاقة) إشارةً لا تصريحا.**

**ففي سورة الأعراف الآيات ( 73 - إلى - 79 ) تكلمت عن النقاط الآتية: -**

**أولا: ذكرت أن الناقة هي ( ناقة الله ) نسبها الله إليه تعظيما لها.**

**ثانيا: ذكرت الجانب الحضاري في عهد ثمود قال تعالى: {وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا}.**

**ثالثا: ذكرت الحوار الذي دار بين المستكبرين والمستضعفين من قوم صالح واستهانة المستكبرين بالمعجزة ثم عقرهم الناقة...**

**ثم تأتي صورة هودو الآيات ( 61 إلى 68) فتضيف جانبا جديد من الأخبار:**

**أولا: حوار القوم مع صالح عليه السلام ورده عليهم.**

**ثانيا: تحديد المدة التي عاشها القوم بعد عقر الناقة بثلاثة أيام، ثم أخذتهم الصيحة.**

**ثالثا: بينت أن الله نجى صالحا والذين آمنوا معه {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا}...**

**وكل هذه الأخبار جديدة لم تذكر في سورة الأعراف....**

**ثمّ تأتي سورة الحجر الآيات(80 إلى 84) وتذكر المكان الذي دارت عليه حوادث القصة...أن اسم المكان ( الحِجْر) بكسر الحاء....وهو مكان بين الحجاز والشام وتسمى مدائن صالح...**

**وفي سورة الشعراء تبرز ملامح جديدة في الآيات ( 141 إلى 159)**

**أولا: - تبين أن صالحا لم يطلب أجرا على دعوته {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145}.**

**ثانيا: - تخبرنا عن الجانب الزراعي في بلادهم {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148}**

**ثالثا: - تبين أن القوم هم الذين طلبوا معجزة من النبي صالح {فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155)}.**

**رابعا: - تظهر ندم القوم بعد عقر الناقة {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ}ومعلوم أنه ندم مشاهدة العذاب وليس ندم التوبة....**

**واما في سورة النمل من الآية ( 45 إلى 53) تحدثنا السورة عن مؤامرة لزعماء القوم أرادوا قتل صالح عليه السلام وأهله ولكنَّ الله تعالى أبطل مكرهم وعذبهم..... {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)}.**

**وفي سورة فصلت والذاريات والحاقة لمحات سريعة كالتذكرة والعبرة.....**

**ثمَّ تأتي سورة القمر والآيات( 23 إلى 32 ) فتذكر لنا أن القوم جميعا قد اشتركوا في عقر الناقة وذلك لأنهم ذهبوا إلى صاحبهم لعقرها. {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30)}.**

**كما تذكر للمرة الأولى أن الذي عقر الناقة قد شرب الخمر قبل أن يرتكب جريمته لأن الخمر تهّون الجرائم {فتعاطى فعقر} أي تعاطى الخمر...**

**وتأتي سورة الشمس من الآية 11 إلى نهاية السورة وهنا تظهر الملامح الأخيرة وتتلخص في نقطتين: -**

**الأولى: - أن الرجل الذي عقر الناقة هو أشقى القوم.... {إذ انبعث أشقاها}... الثانية: - أن القوم قد أهلكوا بذنوبهم لم يظلمهم الله تعالى {فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)}.**

**هذه لمحة سريعة حول هذا الموضوع العظيم تاركا للمتأملين الإجابة على هذا السؤال: هل في القرآن تكرار؟ وأظنه قد وضح ذلك أن مجموع آيات القرآن قي الموضوع الواحد تعطي صورة كاملة عن الموضوع. ([[120]](#footnote-120))**

**أقول: فهذا الحديث فيه الإشارة إلى بعض أسرار التكرار في القصة القرآنية.وأنها نموذج لتكامل الصورة القرآنية مقطَّعة على حسب ما يقتضيه السياق القرآني، ومساق العبرة والغرض في كل موضعٍ من مواضع ذكر القصة. فترى المشهد المذكور من القصة في سياقه مع السورة التي هو فيها، ومع الآيات سباقاً ولحاقاً مُستثمَرٌ أبلغ استثمارٍ في موضعه على كلٍ من المستوى الدلالي، والتربوي، والفني للآيات. ثم بجمع مشاهد القصة من السور والآيات التي وردت فيها ترتسم الصورة واللوحة النهائية لها بتفاصيلها ودقائقها. فتكون القصة القرآنية وتكرارها في سور القرآن هي حافز لقراءة موضوعية شمولية لكتاب الله تعالى؛ ترى الكل ثم تنطلق لترى تفاصيل الأجزاء. وهذا الاتجاه القديم الحديث في تدبر كتاب الله تعالى أصبحت الحاجة إليه ملحة للفكاك مما ذمه الله تعالى حين قال: { أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}؛ إذ أن إعمال هذه النظرة الشمولية في كتاب الله تعالى تعني نظرة أوضح وأكثر إلماما بمقاصد الذكر الحكيم، وتجنبنا طوام النظرات المجزوءة لكتاب الله تعالى.**

**وعلى مستوى آخر فإن ما يبدو للوهلة الولى أنه من باب التكرار في كتاب الله تعالى هو من المتشابه شكلاً لا معنىً وليس مكرراً. وإن النظر المتمعن المتأمل في ذلك يؤدي إلى توجيه هذا التشابه بما يتفق مع عظمة البلاغة القرآنية في تقرير المختلفات بطرقٍ متشابهة. وقد صنف في ذلك علماء كبار منهم: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفي: نحو 505هـ) في كتابه: أسرار التكرار في القرآن المسمى (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان).. وغيره كثيرون، وهو علم لطيف لا يلج فيه إلا المتدبرون العلماء.**

**ولنضرب مثالاً بسيطا يحدثنا فيه الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله:**

**وهو قول الحق عز وجل: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} [ص: 75]**

**ونحن حين نحلل هذا النص، نجد قوله: {مَا مَنَعَكَ} أي ما حجزك، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين، فقال الحق مرةً: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ}. وقال مرةً أخرى: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ}. وهذا يعني أن الأسلوب الأول جاء ب «لا» النافية، والأسلوب الثاني جاء على عدم وجود «لا» النافية. وقوله {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} كلام سليم واضح؛ يعني: ما حجزك عن السجود. لكن {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} هي التي تحتاج لوقفة. لذلك قال العلماء: إن «لا» هنا زائدة، ومَنْ أَحْسَن الأدب منهم قال: إن «لا» صلة. لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة «منع» ولأي أمر تأتي، وأنت تقول: «منعت فلاناً أن يفعل»، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته.**

**إذن {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ} كأنّه كان عنده تهيؤ للسجود، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد. لكن ذلك لم يحدث. وتأتي «منع» للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع، وهناك فرق بين ممنوع، وممتنع؛ فممنوع هي في {مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ}، وممتنع تعني أنه امْتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنّه أقنعه. ولذلك قال الحق سبحانه: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} (الأعراف: 12). وهذا هو السبب في وجود التكرار في القرآن.([[121]](#footnote-121))**

**\*\*\*\***

# عودٌ إلى الآيات.

**قوله- عز وجل:{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} الآية (92) سورة البقرة.**

**وفي اتصال الآية بما قبلها يقول الراغب ما معناه: جُعل ذلك أيضا استدراكاً وتوبيخاً على دلالة قولهم: (نؤمن بما أُنزل علينا) فكأنه قيل: كيف تدَّعون أنكم آمنتم به؛ وقد أتاكم موسى بالآيات البينات؛ فما لبثتم أن عبدتم العجل ظلما، واستهانةً بآيات الله الواضحات وتلقيها بالجحود والكفر.**

 **وفي تخصيص {ثم} زيادة فائدة، وهي أن ذلك منكم بعد تدبر الآيات والتمكن من معرفتها، والآيات ههنا هي الآيات التسع المذكورة في قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}، وقوله: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ}...([[122]](#footnote-122))**

**قال الواحدي في البسيط: المراد بـ (ثُم) هاهنا: الاستعظام لكفرهم مع ما رأوا من الآيات التي أتى بها موسى عليه السلام.ا.ه.**

**وقال المفسرون: الآيات التسع هي: العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر.أو غيرها مما كثر وقوعه من المعجزات الباهرات حجةً على بني إسرائيل في كفرهم.**

**والمعنى: لقد كفرتم يا أيها اليهود بكتابكم، ورجعتم إلى الشرك في عهد موسى، فقد جاءكم موسى بالآيات الواضحات، والمعجزات (البينات)، والدلائل القاطعات على وحدانية الله، وعلى أنه لا إله إلا هو، وعلى أنه رسول الله، ولكنكم اتخذتم العجل معبودا من دون الله بعد أن ذهب موسى لمناجاة ربه في جبل الطور، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، فعبادتكم غيره ظلم كبير، وكفران بالنعم..([[123]](#footnote-123))**

**\*\*\***

**قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)}**

**قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} إلى قوله: {وَاسْمَعُواْ} أي: ما فيه من حلاله وحرامه، {قَالُوا سَمِعْنَا} ما فيه، {وَعَصَيْنَا} ما أمرنا به، هذا هو الظاهر.**

**وقال أهل المعاني: معنى (اسمعوا) هاهنا: استجيبوا وأطيعوا، عُبِّر بالسمع؛ لأنه سَبَب الإجابة والطاعة، وقد يُعبّر عنهما بالسمع كقول الشاعر:**

**دعوتُ اللهَ حتى خِفتُ أن لا... يكونَ اللهُ يَسْمَعُ ما أقولُ. أي: يجيب.**

**وقوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} بعض المفسرين يقولون: إنهم تلفظوا بهذه اللفظة، فقالوا: {سَمِعْنَا} لما أطل الجبل فوقهم، فلما كشف عنهم قالوا: {وَعَصَيْنَا} [وروى بنحوه عن ابن عباس كما في البحر المحيط( 1/ 308) واستحسنه أبو حيان قال: لأنا لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره لا سيما إذا لم يقم دليل على خلافه اهـ. وحكى الواحدي في الوسيط(1/ 176) أن المفسرين اتفقوا على أنهم قالوا (سمعنا) لما أطل الجبل فوقهم، فلمَّا كشف عنهم قالوا (عصينا)].**

**وقال الحسن: قالوا: سمعنا بألسنتهم، وعصينا بقلوبهم.**

**فقال أهل المعاني (يؤولون ذلك): إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، ولكنهم لما سمعوا الأمر، وتلقَّوه بالعصيان نسب ذلك منهم إلى القول اتساعًا، كقول امرؤ القيس:**

**نواعِمُ يُتْبعنَ الهوى سُبُلَ الردَى... يقلن لأهل الحِلم ضُلًّا بَتْضلال.**

**قالوا: المعنى: يُضللن ذا الحلم، وليس الغرض حكاية قولهن. وقوله تعالى: {وَأُشْرِبُواْ} الإشرابُ في اللُّغةِ خَلْطَ لونٍ بلون، يقال: أبيض مُشرَبٌ حُمرةً، إذا كان يعلوه حُمرة. وقال أبو عبيدة، والزجاج: معناه سُقُوا حُبَّ العِجل، وأصل الإشرابِ: السَّقْي.**

 **والمعنى هاهنا: أنهم خلطوا بحب العجل حتى اختلط بهم، ثم بيّن أنّ مَحَلّ ذلك الحُبّ قلوبهم، وأن الخلط حصل فيها، فأضاف أولًا إلى الجملة { وأشربوا}، ثم خصّ القلوب { في قلوبهم}، كما تقول: ضُربوا على رؤوسهم، أضفت الضرب أولًا إليهم، ثم بيّنت مَحلّ الضَّرب، وإنما ذكره بلفظ الإشراب إخبارًا عن رسوخ ذلك الحُبّ في قلوبهم كإشراب اللَّوْن لِشِدّة الملازمة.**

**وقوله تعالى: {الْعِجْلَ} أراد: حُبّ العجل فحذف المضاف؛ كقوله: {وَسْئَلِ القَرْيَةَ} (يوسف: 82)، وقوله تعالى: {بِكُفْرِهِمْ} قال بعضهم: أي، باعتقادهم التشبيه؛ لأنهم طلبوا ما يتصوّرُ في نفوسهم (أقول- جامعه: وهو توجيه عقدي لا دليل عليه من السياق، وربما عاضده أن طبيعة القوم هي المادية التي أهلكتهم). وقال الزجاج: معناه فعل الله ذلك مجازاة لهم على الكفر، كما قال: {بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفرِهِم} [النساء: 155].**

**وقوله تعالى: {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} معناه: إن كنتم مؤمنين فبئس الإيمان إيمانٌ يأمر بالكُفْر، وهذا تكذيب لهم؛ لأنهم كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، وذلك أنهم قالوا: {نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، فكذّبهم الله عز وجل، وعيَّرهم بعبادة العجل، وذلك أنّ آباءهم ادعوا الإيمان ثم عبدوا العجل.**

**وقوله تعالى: {يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ} من المجاز وسعة العربية؛ لأن الإيمان لا يأمُر، وهو كقوله: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]، وكما تقول في الكلام: بئسما يأمرك العقل بشتم الناسِ، معناه: إِن كنْتَ عاقلًا لم تشتمهم، كذلك المعنى في الآية: لو كنتم مؤمنين ما عبدتم العجل.([[124]](#footnote-124))**

**أقول: فقد ذكرت عبادتهم للعجل قبل ذلك في سورة البقرة وكان السياق حينها في خضم تعداد نعم الله تعالى عليهم ومقابلتها بالكفران، وعفو الله عنهم بعدها...ثم ذكرت قصة العجل هنا لتبكيتهم وتفنيد إدعائهم بالإيمان بما ألقي إليهم من التوراة، فكان التركيز على أنهم لم يسمعوا كلام الله سمع طاعة وقبول وإنما تلقوه بالعصيان والكفر. فتأمل كيف أن التكرار في كتاب الله لقصةٍ واحدةٍ بزوايا مختلفة، وتفاصيل مختلفة، وملائمة مع السياق تخدم المعنى الكلي المقصود بمنتهى الدقة والعظمة {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)} (النساء: 82).**

 **[ وفي قوله تعالى: «قالُوا سَمِعْنا وَعَصَيْنا»، وفي الجمع بين السمع والعصيان ما يشير إلى تلك الطبيعة اللئيمة المستقرة في كيان القوم، وهى أنهم لا يتقبلون الخير ولا يستقيمون عليه، وأنه إذا نفذت إلى آذانهم دعوة الخير استقبلها من قلوبهم عواء مخيف، يردّها عن أفقه، ويصدها عن مورده: «سمعنا وعصينا» ! سمعنا بآذاننا وعصينا بقلوبنا!.**

**وفي قوله تعالى: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» وتكرار هذا القول مرتين في موقف واحد؛ في هذا ما يكشف عن حقيقة هذا الإيمان الذي يدّعونه..**

**فهو إيمان على دَخَل، تختلط به خمائر الشك، والنفاق.. وهذا إيمان لا يقبله الله، ولا يدخل أهله في زمرة المؤمنين به!.] ([[125]](#footnote-125))**

## من فقه الدلالة في القرآن.

**وهنا نجد أن هذه الآية قد امتلأت بالتصوير البلاغي الرائع الذي يأخذ بمجامع القلوب الصافية المتأملة لمعاني القرآن والمتذوقة لجميل فقه اللغة والبيان. يبتدأ ذلك جلياً في استعمال لفظ ( السمع) لمعنيين مختلفين؛ وهى نكتة لغوية دلالية تحل كثيرا من الإشكاليات؛ كما في قوله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ}(الأنفال/ 21).**

**[ فالسَّمْعُ: قوّة في الأذن به يدرك الأصوات، وفعله يقال له السَّمْعُ أيضا، وقد سمع سمعا. ويُعبَّر تارة بالسمّع عن الأذن نحو: {خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ}(البقرة/ 7) أي على آذانهم فلا يسمعون، وقد يكون المقصود المصدر، كما عُبِّر عن فعل السَّمَاعِ في قوله تعالى: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}(الشعراء/ 212)، وقال تعالى:{أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}(ق/ 37).**

 **وتارةً يعبر السمع عن الفهم، وتارةً عن الطاعة، تقول: اسْمَعْ ما أقول لك، ولم تسمع ما قلت، وتعني لم تفهم، قال تعالى: {وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا} (الأنفال/ 31)، وقوله تعالى:{سَمِعْنا وَعَصَيْنا} (النساء/ 46)، أي: فهمنا قولك ولم نأتمر لك، وكذلك قوله: {سَمِعْنا وَأَطَعْنا }(البقرة/ 285)، أي: فهمنا وامتثلنا.**

**وقوله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} (الأنفال/ 21)، يجوز أن يكون معناه: فهمنا وهم لا يفهمون، وأن يكون معناه: فهمنا وهم لا يعملون بموجبه، وإذا لم يعمل بموجبه فهو في حكم من لم يسمع.**

 **ثم قال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا} (الأنفال/ 23)، أي: أفهمهم بأن جعل لهم قوّة يفهمون بها، وقوله: {وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ}(النساء/ 46)، يقال على وجهين:**

**أحدهما: دعاء على الإنسان بالصّمم.**

**والثاني: نفي توجه السباب له.**

**فالأوّل نحو: أَسْمَعَكَ الله، أي: جعلك الله أصمّ بهمزة الإزالة دخلت على فعل (سمع). والثاني نحو: أن يقال: أَسْمَعْتُ فلانا: إذا سببته، وذلك متعارف في السّبّ، وروي أنّ أهل الكتاب كانوا يقولون ذلك للنبيّ صلّى الله عليه وسلم يوهمون أنهم يعظّمونه، ويدعون له وهم يدعون عليه بذلك.**

**وكلّ موضع أثبت الله السّمع للمؤمنين، أو نفي عن الكافرين، أو حثّ على تحرّيه فالقصد به إلى تصوّر المعنى والتّفكر فيه، نحو قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها } (الأعراف/ 195)، ونحو: {صُمٌّ بُكْمٌ} (البقرة/ 18) أي لا يفهمون الخير ولا يقبلونه ولا يعملون به ولا يقولون، ونحوه: {فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ }(فصلت/ 44).**

 **وقوله تعالى: {إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ} (النمل/ 80)، أي: لا تفهمهم، لكونهم كالموتى في افتقادهم بسوء فعلهم القوّة العاقلة التي هي الحياة المختصّة بالإنسانيّة والتي بها يميزون بين ما ينفعهم وما يهلكهم، فهم موتى الأرواح والقلوب والضمائر.**

 **وقوله تعالى في صفة الكفّار: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا} (مريم/ 38)، معناه: ما أسمعهم وما أبصرهم ذلك أنهم يسمعون ويبصرون في ذلك اليوم ما خفي عليهم، وضلّوا عنه اليوم لظلمهم أنفسهم، وتركهم النّظر.انتهى ([[126]](#footnote-126))**

**أقول: وبعد هذا النقل الجميل عن الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن نتوقف وقفات سريعة:**

**إننا لا نستطيع تدبر وتفسير وفهم القرآن العظيم كجزرٍ منعزلة لا رابط بينها ولا علاقة تربطها. وإن الذين يرون الإطار الواسع للعلاقات المتطورة بين آيات القرآن وسوره هو فقط مَن يستطيع أن يتحدث عن قراءةٍ صحيحة لكتاب الله تعالى تؤتي ثمارها وتزهر ورودها. فالحق أن من بلاغة القرآن ونظامه الذي لم يُسبَق إليه هو تناثر موضوعاته ومعانيه على مدى متسع من الآيات بحيث لا تتمكن من الإحاطة بجوانب موضوعٍ ما فيه إلا بجمع أطرافه من مواضعه المتعددة، وهذه ميزة تعطيه مذاقاً مختلفاً في التذوق البلاغي والدلالي. وإن أى محاولة لاجتزاء معنى لفظٍ أو تركيبٍ واحدٍ فيه دون النظر في مواضع ذلك التركيب أو اللفظ هى لا شك إخفاق في الاقتراب من دلالة ذلك المعنى على حقيقته. ولعل ما صنعه ابن جرير الطبري والراغب الأصفهاني والفخر الرازي وابن كثير وغيرهم، ولو بصورةٍ محدودة من البحث عن المشابهة والتكامل الدلالي لآيات القرآن تحت تسمية ( تفسير القرآن بالقرآن)، إن ما فعله أولئك الأفذاذ يعد من اللبنات الأولى من أجل الوصول لنظريةٍ كاملة في التفسير الشمولي والموضوعي لكتاب الله تعالى تحتاج منا إلى المثابرة في تأصيلها وتنميتها وتوسيع تطبيقها من أجل فهم أفضل وتدبر أوثق لكتاب الله تعالى.**

**\*\*\*\***

## البلاغة التصويرية في كتاب الله وتذوقها.

**وأما اللمحة البلاغية الثانية فتستثيرها الجملة التصويرية الرائعة في قوله تعالى: {وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} [البقرة: 93]، وتدور تأملاتنا هنا سريعاً حول الإطار التصويري البلاغي الرائع للقرآن الكريم، وجمله التصويرية الخالدة.**

**( والقرآن الكريم حين خاطب العقل والشعور والعاطفة والوجدان، والروح والقلب جميعًا، خاطبها بأجل الوسائل في التعبير، فبهرها بـ (التصوير القرآني)، التي تلتقي فيه كل روافد الإعجاز، ليكشف عنها أروع كشف، في جلاءٍ ووضوحٍ، وتأثيرٍ وإقناع.**

**فالتصوير القرآني هو قمة الإعجاز، لأنه بمعناه الواسع العميق والشامل الثري بقيمه الكثيرة، يفيض بكل ذلك، فهو جسد وروح معًا، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، ولا نقصد بالتصوير الصور التقليدية والجزئية التي اقتصرت على ألوان البيان، كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها، أو اقتصرت على اللفظ والعبارة، أو اقتصرت على النظم في علاقة الكلمات بمعانيها وترابطها، دون الأبعاد النفسية والشعورية، التي يعلمها خالق النفس والشعور سبحانه وتعالى، بل إنه الأمر الأعمق من كل ما سبق، والأرحب أفقًا.**

 **إن التصوير القرآني كائن حي خالد، يلتقي فيه ما اجتمع في الإنسان من كل وسائل الحياة في ارتباط شكله بمضمونه جملة وتفصيلًا، وما وراء ذلك من مشاعر النفس وخوالجها،... ومن مقومات التصوير وعناصره، التي تملك زمام التأثير على النفس وتدفع صاحبها إلى الاقتناع العقلي على سبيل الاعتقاد الصادق، والإيمان الراسخ..والتأثير والإقناع هما الغاية من الإعجاز في التصوير القرآني، وبهما تحول الوليد بن المغيرة من معاندٍ مجادلٍ إلى مهزومٍ ضعيفٍ، يسترحم محمدًا صلى الله عليه وسلم، ويضع كفه على فمه الشريف فزعًا مذعورًا ويقول: "أمسك عليك يا ابن أخي"، ثم يذهب إلى صناديد الكفر، الذين كانوا ينتظرون منه الفتك به والقضاء عليه؛ فإذا بالحق ينطق به قلبه وعقله، وينطلق على لسانه، ليجري مجرى المثل والحكمة - وإن كان المثل من الكافر، فذلك هاهنا أبلغ - فيصف التصوير القرآني بقوله: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه"،وصدق الله العظيم إذ يقول تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: 21] ([[127]](#footnote-127)).**

**أقول: إن التصوير البليغ والفريد هو الأداة المفضلة والأثيرة للتعبير القرآني، وما ذلك إلا لأن التصوير ينقل المعنى من دائرة العقل واللوازم العقلية إلى بؤرة الوجدان وعميق الروح؛ لتفرز ذلك التفرد العجيب لفعل القرآن في النفس.. وإليك ما قال الزمخشرى في الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) } ( يونس 24) قال: شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال؛ بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التفَّ وتكاثف وزُيِّن بخضرته ورفيفه..وفي قوله تعالى " أخذت الأرض زخرفها وازينت " قال:جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من حلل الزينة.) ([[128]](#footnote-128)) ا.ه.. قلتُ: وما أوقعه في النفس هذا التعبير عن تلك العروس التي تزينت بكل زينةٍ لتلقى حتفها ونهايتها، وما أدعاه للفرار واليأس منها.. فكذلك حينما تأسرك التعبيرات التصويرية القرآنية لينصهر في روحك معنىً لا يبلغه أى تعبيرٍ سوى القرآن..**

**واقرأ متدبرا قوله تعالى { بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ( البقرة81).. هذا التعبير الراقي عن أثر الخطيئة التي تظل تضيق على الخاطئ حتى يختنق بها، فلا مفر له منها، وهى لم تترك له منفذاً.**

**وإذا تأملت قوله تعالى من سورة القارعة { وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)}.. كيف جعل من النار الحامية أمَّاً في احتضانها أهل الكفر والخسران وضمِّها لهم، وكأن نفوسهم القاسية وأرواحهم الضائعة ولدت من قسوة النار، فبئست الوالدة لبئس الولد..على العكس تماما من صورةٍ ناصعةٍ بارعةٍ سبقتها.. يرسمها القرآن العظيم بكلمةٍ واحدةٍ في مقابل تلك الصورة المريعة لأصحاب النار.. حينما يقول ربنا { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) }.. لقد ارتسمت في النفس المعاني الكثيرة والرائعة حين أعلمنا القرآن أن ذات العيشة في الجنة( راضية)، فكيف بمن يحيونها؟!!**

 **ثم قف معي عند قوله سبحانه: { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } (154الاعراف) كأن الغضب كان يغريه على فعل ويقول له: قل لقومك كذا وألق بالألواح، وجر برأس أخيك.. وهو تصوير بليغ لتملك الغضب عقل الإنسان وحواسه كأنما يحركها عن أمره وكلامه.. قال في الكشاف (وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما (سكن) عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك اللذة والطرفة، و لا طرفا من تلك الروعة)ا.ه.**

 **ثم تأمل معي قوله تعالى {... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77 الكهف) }.. وكأن الانهيار إرادة حيٍ قد يأس من ضعفه و تآكله فتاقت نفسه لانهدامه.. هذا الشعور بوشك الانهيار الذي يتخلل وجدانك بمجرد سماع الآية، لتكون في مسرح الحدث لا مستمعاً له وحسب. وهذه هى طريقة القرآن.. يأخذك في رحلاته، ينقلك إلى عالم العِبرة، وفضاء الخيال إلى عمق الحدث؛ والذي لم يعد لدى المتدبر مجرد خيال؛ بل هو حقٌ يراه بأم عينيه؛ ليجعلك وكأنك إحدى أدواته الفاعلة التي يرسم بها تصويره على أعلى ما تكون الصورة في الروح والشعور.. { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23) } (الزمر 23).**

**\*\*\***

#  {...وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...}

**يقول سبحانه وتعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)} [البقرة: 94 - 96]**

**اعلم أن هذا نوع آخر من قبائح اليهود؛ وهو ادعاؤهم أن الدار الآخرة خالصةٌ لهم من دون الناس ويدل على أن هذا ردٌ على ادعاؤهم وجوه:- أحدها: أنه لا يجوز أن يقال في الاستدلال على الخصم (إن كان كذا وكذا فافعل كذا)؛ إلا وأن ذلك مذهبهم ليصح إلزامهم بالحجة (وهذا من منطق الاستدلال وعلوم الاحتجاج والمناظرة، فتأمل تجد كل علمٍ نافعٍ في كتاب الله أصله وتهذيبه).**

**وثانيها: ما حكى الله عنهم في قوله: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى} (البقرة: 111)، وفي قوله: { نحن أبناء الله وأحباؤه} (المائدة: 18)، وفي قوله: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة } (البقرة: 80)، (فتأمل لحمة الآيات القرآنية تجدها في مجموعها تتصل لترسم ملامح الدلالة والمعاني واضحة جليةً لكل متدبِّرٍ بصير).**

 **وثالثها: اعتقادهم في أنفسهم أنهم هم المحقون، وأن سائر الفرق مبطلون. ورابعها: اعتقادهم أن انتسابهم إلى أكابر الأنبياء عليهم السلام - أعني يعقوب وإسحاق وإبراهيم - يخلصهم من عقاب الله تعالى ويوصلهم إلى ثوابه، ثم إنهم لهذه الأشياء عظموا شأن أنفسهم فكانوا يفتخرون على العرب وربما جعلوه كالحجة في أن النبي المنتظر المبشر به في التوراة منهم لا من العرب، وكانوا يصرفون الناس بسبب هذه الشبهة عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم.([[129]](#footnote-129))**

## القرآن بعظمته يكشف نفسية اليهود في كل العصور.

**هنا يوغل القرآن العظيم في نفسية القوم ويحلل بعمقٍ ثاقب سيكلوجيتهم وأيدولوجيتهم ومنطلقاتهم الفكرية والعقائدية التي بها يتعاملون مع الناس، إنها عقدة (شعب الله المختار) التي تسيطر على أدمغة القوم وأفئدتهم.**

**تقوم الديانة اليهودية حسبما يذكر اليهود أنفسهم على أربعة أصول منها: عقيدة الاختيار الإلهي لبني إسرائيل، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا يسمح بعبادته ولا يتقبلها إلا لليهود وحدهم، لهذا السبب هم المؤمنون فغيرهم إذن (جوييم) أي كفرة. واليهود يعتقدون حسب أقوال التوراة والتلمود أن**

**نفوسهم وحدهم مخلوقة من نفس الله وأن عنصرهم من عنصره (أو حلّت فيهم نفس الله تعالى عما يكذبون)، فهم وحدهم أبناؤه الأطهار جوهرًا، كما يعتقدون أن الله منحهم الصورة البشرية أصلا تكريمًا لهم، على حين أنهم خلق غيرهم (الجوييم) من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة: ولم يخلق الجوييم إلا لخدمة اليهود، ولم يمنحهم الصورة البشرية إلا محاكاة لليهود، لكي يسهل التعامل بين الطائفتين إكراما لليهود..**

**وإن الناظر في ممارسات اليهود الإجرامية والمجازر المتكررة في حق الشعوب الإسلامية و العربية أو حتى كل الشعوب الإنسانية التي تستغلها فقط لفرض سيطرتها على الأرض، و التاريخ الأسود على مدى التاريخ و خاصة خلال عقودٍ مضت في دولة فلسطين أو في لبنان وغيرهما، اتسم هذا التاريخ الإجرامي بانعدام إنسانية هذا الشعب، إن المتأمل ليستغرب دعواهم أنهم أتباع احد الديانات السماوية، التي نزلت من رب العالمين و الذي يوصف سبحانه بأنه الرحمن الرحيم.**

**وصف الله تعالى التوراة التي كانت بين أيديهم بأنها هدى ونور و شرعه يحكم بها الاحبار والربانيون. وبسبب انحراف هذه الأمة تجد القران الكريم أسهب في الحديث عنهم، وسرد أحداثهم وقصصهم كي يبين لنا خبث هذه الطائفة ومكرها وانحرافها وضلالها، ولكي تكون عبرة للأمم التالية فتتجنب هذه الخصال الذميمة التي ذكرها وبينها القران الكريم.**

**لذا كان واجبا علينا التدقيق في عقائد هذه الأمة، و البحث في تحريفات وتفسيرات حاخاماتها التي حرفت وغيرت دينها بتعمد حتى يخدم أهوائها ونزعاتها الشريرة وحب السيطرة والسطوة و الاستعلاء. لذلك يجد الباحث في كتب اليهود  كثير من المعتقدات والمصطلحات والمفاهيم التي حُرفت ونُحِيت عن معناها الصحيح لتخدم أهوائهم وأطماعهم الشخصية و الدنيئة، ومن هذه المصطلحات ما يطلق عليه (الأغيار) أو (جوييم) كما في اللغة العبرية. فمن خلال هذا المصطلح استطاع حاخامات اليهود تحويل هذه الكلمة وتأويلها عن المعنى الحرفي والصحيح في التلمود سواء في المشنا او الجمارة لتخدم مصالحهم وسطوتهم.**

**كلمة ( جوييم ) هي جمع لكلمة (جوي ) وهي تعني باللغة العربية ( القوم أو الشعب )وكانت تطلق على مدينة في كنعان، وقد استخدمت هذه الكلمة للتفريق بين اليهود و الشعوب الأخرى، فكل إنسان لا يتبع الديانة اليهودية هو من الأغيار، ثم تطور معنى هذه الكلمة في العقيدة اليهودية من الإشارة إلى الأمم الأخرى لتتطور وتستخدم في الذم و القدح، وقد استخدمها المفسرون اليهود في عدة استخدامات في بدء الأمر، فاستخدمت للتعبير عن عباد الأوثان، وفي ( الجيرييم ) أي المجاورين لليهود، إلى أن استخدمت في الإشارة الى النصارى و المسلمين.**

**(وتتبدى النزعة المتطرفة في التمييز الحادّ والقاطع بين اليهود كشعب مختار أو كشعب مقدَّس يحل فيه الإله من جهة والشعوب الأخرى التي تقع خارج دائرة القداسة من جهة أخرى. فقد جاء في سفر أشعياء (61/5 ـ 6): (ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتُدعَون كهنة الرب تُسمَّون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمَّرون). كما جاء في سفر ميخا (4/12): (قومي ودوسي يا بنت صهيون لأني أجعل قرنك حديداً وأظلافك أجعلها نحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين).**

**وقد ساهم حاخامات اليهود في تعميق هذا الاتجاه، فنجدهم قد أعادوا تفسير حظر الزواج من أبناء الأمم الكنعانية السبع الوثنية (تثنية 7/2 ـ 4)، ووسعوا نطاقه بحيث أصبح ينطبق على جميع الأغيار دون تمييز بين درجات عليا ودنيا.**

**وقد ظل الحظر يمتد و يتسع حتى أصبح يتضمن مجرد تناول الطعام (حتى ولو كان شرعياً) مع الأغيار، بل أصبح ينطبق أيضاً على طعام قام جوي (غريب) بطهوه، حتى وإن طبَّق قوانين الطعام اليهودية. كما أن الزواج المُختلَط، أي الزواج من الأغيار، غير مُعترَف به في الشريعة اليهودية، ويُنظَر إلى الأغيار على اعتبار أنهم كاذبون في بطبيعتهم، ولذا لا يؤخذ بشهاداتهم في المحاكم الشرعية اليهودية، ولا يصح الاحتفال معهم بأعيادهم إلا إذا أدَّى الامتناع عن ذلك إلى إلحاق الأذى باليهود. وقد تم تضييق النطاق الدلالي لبعض كلمات، مثل «أخيك» و«رجل»، التي تشير إلى البشر ككل بحيث أصبحت تشير إلى اليهود وحسب وتستبعد الآخرين، فإن كان هـناك نهي عن سرقـة «أخيك» فإن معنى ذلك يكـون في الواقع «أخيك اليهودي».**

**وقد تحوَّل هذا الرفض إلى عدوانية واضحة في التلمود الذي يدعو دعوة صريحة (في بعض أجزائه المتناقضة) إلى قتل الغريب، حتى ولو كان من أحسن الناس خلقاً. وقد سببت هذه العدوانية اللا عقلية كثيراً من الحرج لليهود أنفسهم الأمر الذي دعاهم إلى إصدار طبعات من التلمود بعد إحلال كلمة «مصري» أو «صدوقي» أو «سامري» محل كلمة «مسيحي» أو «غريب». وأصبح التمييز ذا طابع أنطولوجي في التراث القبَّالي، وخصوصاً القبَّالاه بنزعتها الحلولية المتطرفة، حيث ينظر إلى اليهود باعتبار أن أرواحهم مستمدة من الكيان المقدَّس، في حين صدرت أرواح الأغيار من المحارات الشيطانية والجانب الآخر (الشرير) والخيرون من الأغيار هم أجساد أغيار لها أرواح يهودية ضلت سبيلها. وقد صاحب كل هذا تزايد مطَّرد في عدد الشعائر التي على اليهودي أن يقوم بها ليقوي صلابة دائرة الحلول والقداسة التي يعيش داخلها ويخلق هوة بينه وبين الآخرين الذين يعيشون خارجها.**

**والواقع أن هذا التقسيم لليهود إلى يهود يقفون داخل دائرة القداسة، وأغيار يقفون خارجها، ينطوي على تبسيط شديد، فهو يضع اليهودي فوق التاريخ وخارج الزمان، وهذا ما يجعل من اليسير عليه أن يرى كل شيء على أنه مؤامرة موجهة ضده أو على أنه موظف لخدمته. كما أنه يحوِّل الأغيار إلى فكرة أكثر تجريداً من فكرة اليهودي في الأدبيات النازية أو فكرة الزنجي في الأدبيات العنصرية البيضاء. وهي أكثر تجريداً لأنها لا تضم أقلية واحدة أو عدة أقليات، أو حتى عنصراً بشرياً بأكمله، وإنما تضم الآخرين في كل زمان ومكان. وبذا، يصبح كل البشر أشراراً مدنَّسين يستحيل الدخول معهم في علاقة، ويصبح من الضروري إقامة أسوار عالية تفصل بين من هم داخل دائرة القداسة ومن هم خارجها. وقد تعمقت هذه الرؤية نتيجة الوضع الاقتصادي الحضاري لليهود (في المجتمع الإقطاعي الأوربي) كجماعة وظيفية تقف خارج المجتمع في عزلة وتقوم بالأعمال الوضيعة أو المشينة وتتحول إلى مجرد أداة في يد النخبة الحاكمة. ولتعويض النقص الذي تشعر به، فإنها تنظر نظرة استعلاء إلى مجتمع الأغلبية وتجعلهم مباحاً، وتسبغ على نفسها القداسة (وهي قداسة تؤدي بطبيعة الحال إلى مزيد من العزلة اللازمة والضرورية لأداء وظيفتها).([[130]](#footnote-130))**

**أقول: من هذا التحليل العميق للشخصية اليهودية ينطلق الحوار القرآني ليؤكد على بعد هام من أبعاد الدلالة القرآنية وهو البعد النفسي والذي يتبدى لمن يجيدون الغوص في تدبر معاني الكتاب العظيم.**

# نعود للآيات

**فإن بناء الآيات المنطقي المتين الذي ينطلق إلى أبعد حد في تحليل الشخصية اليهودية بكل تعقيداتها ليكون وصفا دقيقاً لعملية الضلال والإضلال من شياطين الإنس، وعبرةً للمؤمنين وأمة محمد صلى الله عليه وسلم خصوصاً.. هذا البناء يتواصل في إطار حوارٍ متصاعدٍ مع أولئك المارقين الذين استكبروا عن الانصياع لكلمة الله وأمره باتباع محمد والرسل من قبله عليهم السلام، هذا الاستكبار والبحث عن جذوره تواجهه الآيات هنا مواجهةً مباشرةً وتقيم الحجة على بطلان أسسه لتهدم تلك النفسية المتطرفة من جذورها.**

**يقول الفخر الرازي ما ملخصه: إن الله تعالى احتج على فساد قولهم بقوله:**

**{ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصةً عليهم بسبب ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ومنازعته معهم بالجدال والقتال، ومن كان في النعم القليلة المنغصة، وتيقن أنه بعد الموت له وحده تلك النعم العظيمة؛ فإنه لا بد وأن يكون راغبا في الموت لينتقل من القليل المنغص إلى النعيم المخبوء له وحده. ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا الموت بل لن يتمنوه أبدا، وحينئذ يلزم قطعا بطلان ادعائهم.**

**أما قوله تعالى: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة} فالمراد الجنة لأنها هي المطلوبة من دار الآخرة دون النار لأنهم كانوا يزعمون أن لهم الجنة. فهذا مخصوص بدلالة السياق، وبالدلالة الحالية التي يدل عليها حالهم ومقالهم.**

**وأما قوله تعالى: عند الله فليس المراد المكان بل المنزلة ولا بعد أيضا في حمله على المكان فلعل اليهود كانوا مشبهة فاعتقدوا العندية المكانية فأبطل الله كل ذلك بالدلالة التي ذكرها.**

**وأما قوله تعالى: خالصة فنصب على الحال من الدار الآخرة، أي سالمة لكم خاصة بكم ليس لأحد سواكم فيها حق، يعني إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى و (الناس) للجنس، وقيل:**

**للعهد وهم المسلمون والجنس أولى لقوله إلا من كان هودا أو نصارى ولأنه لم يوجد هاهنا معهود.**

**وأما قوله: من دون الناس فالمراد به سوى لا معنى المكان كما يقول القائل لمن وهب منه ملكا: هذا لك من دون الناس.**

**وأما قوله تعالى: فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ففيه مسألتان:**

**المسألة الأولى: هذا أمر معلق على شرط مفقود وهو كونهم صادقين فلا يكون الأمر موجودا والغرض منه التحدي وإظهار كذبهم في دعواهم.**

**المسألة الثانية: في هذا التمني قولان، أحدهما: قول ابن عباس إنهم يُتحَدَّون بأن يدعو الفريقان بالموت على أي فريق كان أكذب؛ كآية المباهلة الآتية بعد. والثاني: أن يقولوا ليتنا نموت وهذا الثاني أولى لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ.**

**وأما قوله تعالى: ولن يتمنوه فخبر قاطع عن أن ذلك لا يقع في المستقبل وهذا إخبار عن الغيب لأن مع توفر الدواعي على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وسهولة الإتيان بهذه الكلمة، أخبر بأنهم لا يأتون بذلك فهذا إخبار جازم عن أمر قامت الأمارات على ضده فلا يمكن الوصول إليه إلا بالوحي.**

**وأما قوله تعالى: أبدا فهو غيب آخر لأنه أخبر أن ذلك لا يوجد ولا في شيء من الأزمنة الآتية في المستقبل ولا شك أن الإخبار عن عدمه بالنسبة إلى عموم الأوقات فهما غيبان يدلان على مدى التحدي القرآني بكسر حجب المستقبل، وهو من أعظم إعجاز القرآن العظيم.**

**وأما قوله تعالى: بما قدمت أيديهم فبيان للعلة التي لها لا يتمنون [الموت] لأنهم إذا علموا سوء طريقتهم وكثرة ذنوبهم دعاهم ذلك إلى أن لا يتمنوا الموت.**

**وأما قوله تعالى: والله عليم بالظالمين فهو كالزجر والتهديد لأنه إذا كان عالما بالسر والنجوى ولم يمكن إخفاء شيء عنه صار تصور المكلف لذلك من أعظم الصوارف عن المعاصي، وإنما ذكر الظالمين لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافرا فلما كان ذلك أعم كان أولى بالذكر فإن قيل: إنه تعالى قال هاهنا: ولن يتمنوه أبدا وقال في سورة الجمعة: ولا يتمنونه أبدا فلم ذكر هاهنا (لن) وفي سورة الجمعة «لا» قلنا: إنهم في هذه السورة، ادعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وادعوا في سورة الجمعة أنهم أولياء لله من دون الناس والله تعالى أبطل هذين الأمرين بأنه لو كان كذلك لوجب أن يتمنوا الموت والدعوى الأولى أعظم من الثانية إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب، وأما مرتبة الولاية فهي وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة فلما كانت الدعوة الأولى أعظم لا جرم بين تعالى فساد قولهم بلفظ: «لن» لأنه أقوى الألفاظ النافية ولما كانت الدعوى الثانية ليست في غاية العظمة لا جرم اكتفي في إبطالها بلفظ «لا» لأنه ليس في نهاية القوة في إفادة معنى النفي والله أعلم.([[131]](#footnote-131))**

## نقاش جميل بين المفسرين.

**نقاش علمي جميل بين علماء المفسرين يحدو بنا إلى الطريقة العلمية المهذبة في النقاش والرد للوصول إلى الحق.**

**يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره ت سلامة (1/ 332):**

 **ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.**

**ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: {قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين\* ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين\* قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون} [الجمعة: 6-8].**

 **فهم -عليهم لعائن الله-لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: {فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين} [آل عمران: 61] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، أمينا. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: {قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا} [مريم: 75]، أي: من كان في الضلالة منا أو منكم، فزاده الله مما هو فيه ومد له، واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.**

**فأما من فسر الآية على معنى: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين} أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم.**

 **ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول؛ فإنه قال: القول في تفسير قوله تعالى: {قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين} وهذه الآية مما احتج الله به لنبيه صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم؛ وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذا خالفوه في عيسى ابن مريم، عليه السلام، وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق من اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضار بكم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا. وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق من النصارى.**

**فهذا الكلام منه أوله حسن، وأما آخره فيه نظر؛ وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنوا الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيرا وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث: (خيركم من طال عمره وحسن عمله). وجاء في الصحيح النهي عن تمني الموت، وفي بعض ألفاظه: (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فلعله أن يزداد، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب). ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون -أيها المسلمون-أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت؛ فكيف تلزمونا بما لا نلزمكم؟**

**وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم -عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.**

**وسميت هذه المباهلة تمنيا؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت.انتهى.**

**أختار ما قاله الزمخشري والرازي وغيرهما وهو ما اختاره العلامة ابن العثيمين في تفسيره. وتوجيه معنى: {تمنوا الموت} عن طريق المباهلة؛ والذي رجحه ابن كثير رحمه الله؛ وضعف الأول بأنه لو كان المراد: تمنوا حصول الموت لكانوا يحتجون أيضاً علينا نحن، ويقولون: أنتم أيضاً إن كنتم تقولون: إن الدار الآخرة لكم فتمنوا الموت؛ لأن تحديكم إيانا بذلك ليس بأولى من تحدينا إياكم به؛ لأنكم أنتم أيضاً تقولون: إن الدار الآخرة لكم، وأن اليهود بعد بعثة الرسول  صلى الله عليه وسلم في النار؛ فتمنوا الموت أنتم أيضاً، والجواب عن ذلك أنا لم ندع أن الدار الآخرة خالصةً لنا من دون الناس؛ بل نؤمن بأن الدار الآخرة لكل من آمن وعمل صالحاً سواء كان من هذه الأمة أم من غيرها؛ وهذا المعنى الذي نحا إليه ابن كثير. رحمه الله. مخالف لظاهر السياق؛ فلا يعوَّل عليه؛ وقد عرفتَ الانفكاك منه في أول عرضنا لمعنى الآيات..**

**\*\*\***

**قال ابن حجر في تخريجه على أحاديث تفسير الكشاف:**

**أخرج البيهقي في الدلائل من رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما «أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال لليهود «إن كنتم صادقين في مقالتكم فقولوا: اللهم أمتنا. فو الذي نفسي بيده، لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه ومات مكانه. قالوا: فأنزل اللَّه (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) وفي البخاري من رواية عبد الكريم الجزري عن عكرمة عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما فال قال أبو جهل «إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم «لو فعل لأخذته الملائكة- زاد الإسماعيلي-: عيانا. قال ابن عباس: ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا. ولو خرج الذين يباهلون رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه مثله. وزاد بعد قوله «لماتوا» «ورأوا مقاعدهم من النار».([[132]](#footnote-132))**

**قلت- أى جامعه: والكلبي متروك، وأبي صالح عن ابن عباس ضعفها العلماء. قال السيوطي: ( وأوهى طرقه: طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب، وكثيرا ما يخرج منها الثعلبي والواحدي، لكن قال ابن عدي في الكامل: للكلبي أحاديث صالحة، وخاصة عن أبي صالح، وهو معروف بالتفسير وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع ). ([[133]](#footnote-133))**

**ويعضد معنى ما جاء في هذه الروايات الآنفة في التفسير عن ابن عباس ما قاله ابن كثير: وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، قوله: {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين} قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا.**

**وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عثام، سمعت الأعمش -قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبير-عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه.**

**قال ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس.([[134]](#footnote-134))**

**\*\*\***

**نعود ونقول: هاتان الآيتان تحملان الحجة الدامغة وروح التحدي لليهود لأن الله سبحانه قطع بأنهم لن يتمنوا الموت أبدا وما عهدنا عليهم في تاريخهم الطويل أنهم ألقوا بأنفسهم إلى الموت طمعا بدخول الجنة.**

**وقد انتصر المسلمون على دولتي كسرى وقيصر لأنهم تمنوا الموت وطلبوا الشهادة مؤمنين بأنهم سينتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء وهذه سمة المؤمنين حقا في كل عصر.**

**ولعل في موقف خالد بن الوليد من الموت أحسن عبرة فقد بكى عند ما أدرك انه ملاق الموت فسئل ما يبكيك فقال: لقد حضرت كذا وكذا معركة، حتى لم يبق في جسمي موضع شبر إلا وفيه طعنة رمح أو ضربة سيف وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء.**

**قال الزمخشري: وقوله تعالى:{ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً } من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به، كقوله: (وَلَنْ تَفْعَلُوا) فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا؟ قلت: لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذرّ، وليس أحد منهم نقل ذلك. فإن قلت: التمني من أعمال القلوب وهو سرّ لا يطلع عليه أحد، فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا؟ قلت: ليس التمني من أعمال القلوب، إنما هو قول الإنسان بلسانه: ليت لي كذا، فإذا قاله قالوا: تمنى، وليت: كلمة التمني، ومحال أن يقع التحدي بما في الضمائر والقلوب ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا: قد تمنينا الموت في قلوبنا، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك فإن قلت: لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدّقون. قلت: كم حكى عنهم من أشياء قاولوا بها المسلمين من الافتراء على اللَّه وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ولا محمل له إلا الكذب البحت ولم يبالوا، فكيف يمتنعون من أن يقولوا إنّ التمني من أفعال القلوب وقد فعلناه، مع احتمال أن يكونوا صادقين في قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدَّق مع احتمال أن يكون كاذبا لأنه أمر خافٍ لا سبيل إلى الاطلاع عليه.([[135]](#footnote-135))**

**\*\*\***

# { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...}

**يقول تعالى: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)}**

**وقوله تعالى { ولتجدنهم...الآية} معطوف على قوله: {ولن يتمنوه أبدا} (البقرة: 95)، للإشارة إلى أن عدم تمنيهم الموت ليس على الوجه المعتاد عند البشر من كراهة الموت ما دام المرء بعافيةٍ؛ بل هم تجاوزوا ذلك إلى كونهم أحرص من سائر البشر على الحياة حتى المشركين الذين لا يرجون بعثا ولا نشورا ولا نعيما. فنعيمهم عندهم هو نعيم الدنيا وإلى درجة أنهم تمنوا أن يُعمَّروا أقصى أمد التعمير مع ما يعتري صاحب هذا العمر من سوء الحالة ورذالة العيش.([[136]](#footnote-136))**

**وقوله تعالى: {ولتجدنهم} دخلت اللام والنون لأن القسم مضمر، تقديره: والله لتجدنهم، يعني علماء اليهود الذين كتموا أمر محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، {أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ} (البقرة: 96) لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار إذا ماتوا.**

**ومعنى الحرص: شدة الطلب، وقوله {ومن الذين أشركوا} أي: وأحرص من الذين أشركوا، أفاده عطف المعنى على نظيره، وأما الواو في قوله: {ومن الذين أشركوا} ففيه ثلاثة أقول:**

**أحدها: أنها واو عطف، والمعنى أن اليهود أحرص الناس على حياة وأحرص من الذين أشركوا، كقولك: هو أسخى الناس ومن حاتم، أى وأسخى من حاتم. وهو قول جمهور المفسرين.**

**والقول الثاني: أن هذه الواو واو استئناف وقد تم الكلام عند قوله: «على حياة» وتقديره ومن الذين أشركوا أناس يود أحدهم على حذف الموصوف كقوله: {وما منا إلا له مقام معلوم} (الصافات: 164) أى وما منا أحدٌ إلا له مقام معلوم.**

**القول الثالث: أن فيه تقديما وتأخيرا، وتقديره: ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة، ثم فسر هذه المحبة بقوله: {يود أحدهم لو يعمر ألف سنة} وهو قول أبي مسلم. والقول الأول أولى لأنه إذا كانت القصة في شأن اليهود خاصة فالأليق بالظاهر أن يكون المراد: ولتجدن اليهود أحرص على الحياة من سائر الناس، ومن الذين أشركوا ليكون ذلك أبلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم. إن الدار الآخرة لنا لغيرنا والله أعلم.**

**ومعنى الإشراك: عبادة غير الله مع الله، وهو أن يجعل عبادته مشتركة بين الله وغيره.**

**قال أبو العالية، والربيع: أراد بالذين أشركوا: المجوس، وإنما وصفوا بالإشراك لأنهم يقولون بالنور والظلمة، ويزدان وأهرمن، وهم موصفون بالحرص على الحياة، ولهذا جعلوا التحية بينهم: زه هزار سال (بالفارسية). أي: عش ألف سنة.**

**وقال ابن عباس: أراد بالذين أشركوا: منكري البعث، ومن أنكر البعث أحب الحياة، لأنه لا يرجو بعثا بعد الموت.**

**والمعنى: يا محمد، لتجدن أشد الناس حرصا على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهة للموت، اليهود. وإنما كراهتهم الموت، لعلمهم بما لهم في الآخرة من الخزي والهوان الطويل، بما فعلوا من القبائح والفواحش والكفر.**

**(ومن الذين أشركوا)، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة، وكان هنا تخصيص المشركين بالذكر في حرصهم على الحياة، بعد عموم إطلاق زيادة اليهود في الحرص على الحياة على كل الناس، لأن كل الناس يحرص على الحياة، والمشرك لعدم إيمانه بالبعث أشد حرصاً على الحياة الدنيا لأنها عنده النهاية؛ ومن العجيب أن اليهود أشد من الناس جميعهم ومن المشركين كذلك في كراهيتهم الموت. وفي هذا زيادة توبيخ لليهود في أنهم كفروا بما قد تيقنوه في أنفسهم؛ فهم في الكفر أكفر الناس وأكفر- حتى – من المشركين، وتلك دلالة المفهوم في الآية، فتأمل.**

**قال الزمخشري: فإن قلتَ: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلتُ: بلى، ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرص المشركين شديد. وفيه توبيخ عظيم: لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يُستبعَد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتابٌ وهو مقرّ بالجزاء كان حقيقا بأعظم التوبيخ.ا.ه.**

**وفي تنكير{ حياةٍ} دلالات كثير للمتدبرين، فهم يحرصون على أى حياةٍ، ولو حياة العاصين الهالكين الخائفين الممقوتين الملعونين، هى حياة وفقط، بحقارتها وضئالتها وضياعها جنب الحياة الآخرة. {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (العنكبوت: 64).**

**وقوله تعالى: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ} (البقرة: 96) أي: أحد اليهود، يقال: وددت الشيء أوده ودا وودادا وودادة.**

**أو هو إخبارٌ عن أحد الذين أشركوا يود لو يعمَّر ألف سنة، كان قد بلغ من حبهم في الحياة أن جعلوا تَحِيَّتَهُمْ: ( عِشْ أَلْفَ سَنَةٍ )، حرصاً على الحياة، فهؤلاء الذين يقولون أن لهم الجنة خالصة من دون الناس، هم أحب في الحياة من جميع الناس ومن هؤلاء الذين أدّاهم حرصهم على الحياة أن جعلوا تحيتهم: (عِشْ ألف سنة ) وذلك لما قد علموا من سوء ما قدموا لأنفسهم.**

**{لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ} [البقرة: 96] يقال: عمَّره الله تعميرا، إذا أطال عمره.**

**زفيه كناية عن طول العمر؛ لأن الألف من نهايات العدد كثرةً عند العرب.**

**و{ما هو} أي: وما أحدهم، أو: وما تعميره {بِمُزَحْزِحِهِ} أى بمبعده، {مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}، والزحزحة: الإبعاد والتنحية. يعني: إنه وإن عُمِّر ألف سنة أو يزيد فعاقبته ونهايته النار. ([[137]](#footnote-137))**

**يود أحدهم لو يعمر ألف سنة. ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة.**

**وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة.. إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة. نعمة يفيضها الإيمان على القلب.**

**نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني. المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة. فالإيمان بالآخرة- فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفي- هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله.([[138]](#footnote-138))**

**وفي قوله {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ} تهديد ووعيد شديد، والجمهور على قراءة «يعملون» بالياء من أسفل، وقرأ قتادة والأعرج ويعقوب «تعملون» بالتاء من فوق، وهذا على الرجوع إلى خطاب المذكورين من بني إسرائيل.**

**\*\*\***

**إن الدعوى التي يدعيها بنو إسرائيل، ليتخذوا منها مقنعا لهم وللناس، من أنّهم أبناء الله، وأنهم موضع رعايته واختصاصه إياهم بالرحمة والرضوان- هذه الدعوى مفتراة على الله، أوردوا بها أنفسهم موارد الضلال والهلكة..**

**وليس أدل على بطلان هذه الدعوى وفساد هذا المتعلّق الذي يتعلقون به، من أنهم لو كانوا يؤمنون حقّا بصدق هذه الدعوى لكان تعلقهم بالدار الآخرة أكثر من تعلقهم بالحياة الدنيا، ففي الآخرة نعيم لا ينفد أبدا، وسعادة شاملة لا تدخل عليها شائبة من شقاء أو نصب.. ولكن القوم يتعلقون بالحياة الدنيا أشد التعلق، وينفرون من كل أمر يقطعهم عن هذه الحياة ويصلهم بالآخرة، أشدّ النفور.. «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا»..**

**فهم أحرص الناس جميعا بلا استثناء على الحياة، حتى إنّ المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يرجون حياة بعد هذه الحياة ليس فيهم هذا الحرص على التمسك بالحياة التي يحرص اليهود عليها هذا الحرص العجيب.. «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» ليستوفي حطّه من الجمع والاقتناء.. «وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ» فليس له من هذا المصير مهرب، وإن امتد عمره إلى آلاف السنين!.([[139]](#footnote-139))**

**\*\*\***

**ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود في دعواهم أن الجنة خالصة لهم، ردا يبطل حجتهم، ويفضح مزاعمهم، ويكبت نفوسهم، ويخرس ألسنتهم، ويعلن أن الجنة إنما هي لمن أسلّم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، لأنهم يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات، واقترفوا من أكاذيب.**

**ثم ساق القرآن بعد ذلك لونا عجيبا من ألوان رذائل اليهود وهو مجاهرتهم بالعداوة لأمين الوحى جبريل- عليه السلام- فقال- تعالى-:**

# [سورة البقرة: الآيات 97 الى 101]

**يقول سبحانه: { قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)}**

**زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير، وأنهم لا يحبونه، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به، فأكذبهم الحقّ سبحانه فأخبر أنه: مَن كان عدوا لجبريل لأنه لا يأتي بالخير، فأى خيرٍ أعظم مما نزل به من القرآن؟! ثم أخبر تعالى أن من عادى جبريل وميكائيل فإن الله عدو له، فإنّ رسول الحبيب إلى الحبيب كريم المنزلة، عظيم الشرف. وما ضرّت جبريل- عليه السّلام- عداوة الكفار، والحق سبحانه وتعالى وليّه، ومن عادى جبريل فالحقّ عدوّه، وما أعز هذا الشرف وما أجلّه! وما أكبر علوه! ([[140]](#footnote-140))**

**[ فهاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة غريبة حقا من رذائل اليهود وهي عداوتهم لملكٍ من ملائكة الله، لا يأكل مما يأكلون، ولا يشرب مما يشربون وإنما هو من الملائكة المقربين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإذا فليس هناك مقتضٍ لعداوته، فلماذا هذا التصريح منهم ببغضه وكراهيته؟**

**لقد سمعوا أن جبريل- عليه السلام- ينزل بالوحي من عند الله على محمد صلّى الله عليه وسلّم وهم يحسدونه على النبوة، فلجَّ بهم الحقد والغيظ إلى أن أعلنوا عن عدائهم لجبريل- أيضا- وهذه حماقة وجهالة منهم، لأن جبريل- عليه السلام- نزل بالخير لهم في دينهم وفي دنياهم.**

**ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلاها لا تفرق بين الخير والشر.**

**قال الإمام ابن جرير: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا، على أن هذه نزلت جوابا ليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدوٌ لهم، وميكائيل ولىٌ لهم).**

**وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس: «أن اليهود بعد أن سألوا النبي صلّى الله عليه وسلّم أسئلة أجابهم عنها، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك. قال: وليي جبريل، لم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من**

**الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله- تعالى- قوله: قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ... الآيات.**

**وفي حديث للإمام أحمد والترمذي والنسائي «قال اليهود للنبي صلّى الله عليه وسلّم بعد أن سألوه عن أشياء أجابهم عنها إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال جبريل- عليه السلام- قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله- تعالى-: قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ الآية.**

**فيؤخذ من هذه الأحاديث وما في معناها أن اليهود في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل- عليه السلام- وأن هذه المجاهرة بالعداوة، قد تكررت منهم في مواقف متعددة بينهم وبين النبي صلّى الله عليه وسلّم وأن الذي حملهم على ذلك هو حسدهم له، وغيظهم من جبريل، لأنه ينزل بالوحي عليه.**

**قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله، ومع ذلك يبغضونه، وهذا أحط درجات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام».([[141]](#footnote-141))**

**والمعنى: قل لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدقوا، إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبر على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل بالقرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.**

**مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل مصدقا لما تقدمه من الكتب غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي، لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك، كفر بالله وآياته، وعداوة لله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل، لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله.**

**فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.([[142]](#footnote-142))**

**و{نَزَّلَهُ}؛ أي: نزل هذا القرآن {عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}؛ أي: بأمره تعالى، لا برأيه، فالضمير في قوله: { فإنه} لجبريل، وفي {نزله} للقرآن، وإضماره في الثاني مع عدم سبق المرجع يدلُّ على فخامة شأن القرآن؛ كأنَّه لتعينه؛ وفرط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره؛ ولدلالة المعنى عليه، ألا ترى إلى قوله: {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، وهذه كُلُّها من صفات القرآن، وليكون موافقًا لقوله: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ}.**

**وأتى بحرف الجر (على) في قوله: {عَلَى قَلْبِكَ}؛ لأنَّ القرآن مستعلٍ على القلب، إذ القلب سامع له، ومُطيعٌ يمتثل ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه، وهى هنا أبلغ من حرف الجر ( إلى)؛ لأنَّ إلى تدلُّ على الانتهاء فقط.**

**وخصَّ القلب في {على قلبك} ولم يقل (عليك)؛ لأن القلب هو محلُّ العقل، والعلم، وتلقِّي الواردات؛ أو لأنَّه صحيفته التي يرقم فيها، وخزانته التي يُحفظ فيها؛ أو لأنَّه سلطان الجسد. وفي الحديث: "إنَّ في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كله... ألا وهي القلب"؛ أو لأنَّ القلب خيار الشيء وأشرفه، أو لأنّه بيت الله؛ أو لأنّه كنَّى به عن العقل، إذ قد ذكر الإنزال عليه صلى الله عليه وسلم في أماكن {مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}.**

**(أقول - جامعه: إن الموضع ههنا هو موضع تثبيت لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام تكذيب اليهود وسفاهتهم وتطاولهم فكان ذكر قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الموضع أليق وفيه ترويح عنه واعتناء بشأنه عند ربه، فتأمل).**

**وقوله: {مُصَدِّقًا} حالٌ من الضمير المنصوب في {نَزَّلَهُ} يعود على القرآن، والمعنى: أي: نزله حالة كون القرآن مصدِّقًا وموافقًا {لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: لما قبله من الكتب الإلهية في التوحيد وبعض الشرائع، {وهُدًى وبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}؛ أي: للموحِّدين بالجنة، فلا وجه لمعاداته، فلو أنصفوا لأحبُّوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم، ويَنْصَحُ المُنزَّل عليهم.**

 **( فإن قلت: كيف استقام قوله: (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ) جزاء للشرط «2» ؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابا مصدقا للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم. والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقا لكتابهم وموافقا له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانوا يحرفونه ويجحدون موافقته له، كقولك: إن عاداك فلان فقد أذيته وأسأت إليه.)([[143]](#footnote-143))**

**\*\*\*\***

**يقول تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ} بمخالفته أمر الله عنادًا، وخروجه عن طاعته مكابرةً، أو بمعاداة المقرَّبين من عباده، وصدَّر الكلم بذكر الله؛ تفخيمًا لشأن الحديث {و} لـ {ملائكته} {و} لـ {رسله} {و} لـ {جبريل وميكال} أفردهما بالذكر مع كونهما داخلين في جملة الملائكة؛ لبيان شرفهما؛ وإظهار فضلهما؛ وعلوِّ منزلتهما، وللردّ على اليهود حيث قالوا: جبريل عدوُّنا، وميكال ولِيُّنا.**

**أي: من عادى هؤلاء المذكورين، فقد كفر، والكافر عدوٌّ لله {فَإِنَّ اللَّهَ} جواب الشرط، ولم يقل: فإنَّه؛ لاحتمال أن يعود إلى جبريل، أو ميكال،**

**(أقول: وكذلك لتهويل شأن خسارتهم إذ وضعوا أنفسهم في مقابل عداوة الله تعالى) {عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}؛ أي: عدوٌّ لهؤلاء اليهود، وغيرهم من الكفرة، وأظهر في موضع الإضمار؛ فلم يقل:( عدو لهم)؛ ليدلَّ على أنَّ الله إنّما عاداهم لكفرهم، والمعنى: من عاداهم عاداه الله، وعاقبه أشدَّ العقاب، أي: فإنّ الله سبحانه تولَّى بنفسه عداوة ذلك الكافر بالانتقام منه، وكفى رسله، وملائكته عن أمر من عاداهم.**

**والعداوة بين الله والعبد لا تكون حقيقةً، وعداوة العبد لله تعالى مجازٌ. ومعناها: مخالفة أمره، وعداوة الله للعبد مجازاته على مخالفته.**

**والخلاصة: أي إنَّ من عادى الله وعادى هؤلاء المقرَّبين عنده، فالله عدوٌّ له؛ لأنَّه كافرٌ به ومعادٍ له، وهو الظالم لنفسه حين دعاه فلم يجب، وفي هذا من شديد الوعيد ما لا يخفى، إذ فيه تصريحٌ بأنّهم أعداء الحق، وأعداء كلِّ من يدعو إليه، ومعاداة القرآن، كمعاداة سائر الكتب السماويّة؛ لأنَّ المقصد من الجميع واحدٌ، وهو هداية الناس، وإرشادهم إلى سبيل الخير، ومعاداة محمد - صلى الله عليه وسلم -، كمعاداة سائر الأنبياء؛ لأنَّ رسالتهم واحدة، والمقصد واحدٌ.([[144]](#footnote-144))**

**ولذلك جاء بعدها قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99)}.**

**{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا} استئنافية، واللام فيه للقسم؛ أي: وعزّتي وجلالي، لقد أنزلنا {إِلَيْكَ آيَاتٍ} من القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه {بَيِّنَاتٍ}؛ أي: واضحات الدلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله تعالى، مفصَّلاتٍ بالحلال والحرام، والحدود، والأحكام {وَمَا يَكْفُرُ بِهَا}؛ أي: بالآيات {إِلَّا الْفَاسِقُونَ}؛ أي: الخارجون عن طاعة ربهم الحق، المتمرِّدون في الكفر من سائر الكفرة، فإنّ من ليس على تلك الصفة لا يجترىءُ على الكفر بمثل هاتيك الآيات البينات.**

 **فاللام في ( الفاسقين) للجنس، والأحسن جعلها للعهد إشارةً إلى أهل الكتاب؛ لأنَّ الكلام فيهم، والمعنى حينئذٍ، إلّا الخارجون عن دينهم المحرِّفون لكتابهم؛ لأن اليهود خرجت بالكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - عن شريعة موسى عليه السلام.**

**واعلم: أنَّ القرآن هو النور الإلهيُّ الذي كشف الله به الظُّلمات، واليهود أرادوا أن يُطفِئُوا نور الله، والله متم نوره، وليس لهم في ذلك إلا الفضاحة والخزي، كما إذا دخل الحمام ناسٌ في ليلٍ مظلم، وفيهم الأصحاء وأهل العيوب، فجاء واحدٌ بسراج مضيءٍ لا يسارع إلى إطفائه إلّا أهل العيوب، مخافة أن يُظهر عيوبهم للأصحَّاء.([[145]](#footnote-145))**

**إنه الحسد الذي أدّى ببني إسرائيل إلى الكفر، وأوردهم موارد الهلاك- هذا الحسد قد جعلهم يحادّون الله علنا، ويجهرون بالتطاول على ملائكته، الذين يصدعون بأمره، ويحملون رحمته إلى عباده.. فهم يعلمون أن جبريل- عليه السلام- هو حامل كلمات الله إلى الرسول الكريم، وهم- مع علمهم هذا- يضمرون البغضة والعداوة لهذا الملك الكريم، لأنه حمل رحمة الله إلى عبد من عباد الله، وهم يرون أنهم أحق بهذه الرحمة وأهلها، وأن الله هو إلههم وحدهم، ورحمته مقصورة عليهم!! فكيف يحمل جبريل رحمة السماء إلى أرض غير أرضهم، وإلى جنس غير جنسهم؟**

**وانظر إلى قوله تعالى: «مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» حيث الشرط الذي يفيد العموم، وهو يراد به بنو إسرائيل خاصة.. وفى هذا ما ينادى بأن هؤلاء القوم لا يحتاجون فى هذا المقام إلى وصف أو تخصيص، فإذا ذكرت فعلة شنعاء دون متعلّق لها، فإنها لا تعلق إلا بهم، ولا تأخذ إلا بمخانقهم، من دون الناس جميعا، وإذا أطلقت صفة ذميمة على عمومها، فإنها تحوّم وتحوّم، ثم لا تسقط إلا على رءوسهم هم أولا.**

**وفى قوله تعالى: «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» توكيد لتمكن القرآن الكريم من كيان الرسول، وأنه تلقاه سماعا من الوحى، فإن هذا السماع ينفذ إلى القلب، ويستقر فيه، وحتى لكأن القلب هو الأذن التي تلقّت كلمات الله! أو لكأن الأذن هى قلب، فى الحفظ والوعى لما تسمع!**

**وفى قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ» توكيد لما نزل على النبىّ من قرآن، وآيات بينات، منزلة من الله..**

**وفى قوله سبحانه: «وَما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ» تهديد لليهود، ووعيد لهم، على كفرهم وفسقهم.. فهم الكافرون الفاسقون.. كفروا بمحمد، وفسقوا عن دينهم الذي كانوا عليه، أي خرجوا عن دينهم، حين أنكروا ما فيه من أمر محمد ورسالته.([[146]](#footnote-146))**

**\*\*\***

# الخيانة طبعهم وديدنهم.

**هكذا يعرض القرآن لطامَّةٍ أخرى من طوام القوم وفضائحهم ومخازيهم وتملصهم من اتباع الحق، فالإشارة هنا أنهم كفروا برسالة الأنبياء إليهم، وحرفوا كتب الله إليهم، وهم الآن يتحايلون للكفر بالرسالة المحمدية الخاتمة ويدعون لذلك الأباطيل وضروب التمحلات الواهية، ولكن القرآن وبنبرته الحادة المنطقية يهدم لهم كل حيلة ويضعهم أمام كذبهم مراراً، ويفضحهم حين يحلل كل حيلةٍ لهم، فتندك تحت وقع ضرباته الحازمة الحكيمة.**

**ليختتم هذا الفصل من محاورتهم بسؤال استنكاري حادٍ جداً يصف طبيعة القوم التي لا تنفك أبدا عنهم ( الخيانة).. وبكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني، وبكل ما تتسع له من مجالٍ. هم الخونة لدينهم ولأنبيائهم ولكتب ربهم وحتى لأنفسهم، وهذا طبعا بالإضافة إلى خيانة العهود والمواثيق والجيران والإنسانية أجمع.**

**قال تعالى: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)}**

**نبذ العهود ونقض المواثيق، هو الطبيعة الغالبة على بنى إسرائيل، لا فرق فى موقفهم هذا مع الناس، أو مع الله! ذلك لأنهم لا يؤمنون بالمبادىء والقيم، ولا يتقيدون بقيد الفضيلة والشرف، لما يغلب عليهم من أثرة قاتلة، وأنانية متحكمة، يستبيحون بها كل شىء، وينزلون بها عن كل شىء، من خلق أو دين.**

**وفى قوله تعالى: «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ..» حيث عدل عن التعميم إلى التخصيص، فى قوله «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» بدلا من «منهم» - فى هذا ما يشير بأن علماء القوم وأهل الذكر فيهم، هم الذين يتولّون هذا الإثم العظيم، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، بالخلاف عليه، والتحريف فيه، عن علم، و «كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» ! ([[147]](#footnote-147))**

**ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْيَهُودَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَصَرَّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ الْمُعَاهِدُ لَهُمْ وَأَنَّهُمْ يُنْقِضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ} (الأنفال 55، 56)، وَصَرَّحَ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِأَنَّهُمْ أَهْلُ خِيَانَةٍ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: { وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} (المائدة 13).**

**قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (البقرة 101)}، وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ هُمُ الْأَكْثَرُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (آل عمران 110).([[148]](#footnote-148))**

**\*\*\***

**قوله تعالى:{ أوكلما عاهدوا عهدا} الواو واو العطف، دخلت عليها ألف الاستفهام كما تدخل على الفاء في قوله تعالى في قوله: {أَفَحُكْمَ الجاهلية} (المائدة: 50)، {أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم} (يونس: 42)، {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ} (الكهف: 50)، وعلى ثم كقوله:{ أثم إذا ما وقع }. هذا قول سيبويه.**

**وقال الأخفش: الواو زائدة. ومذهب الكسائي أنها (أو)، حركت الواو منها تسهيلا. وقرأها قوم (أوْ)، ساكنة الواو فتجيء بمعنى (بل)، كما يقول القائل: لأضربنك، فيقول المجيب: أو تعفو. قال ابن عطية: وهذا كله مُتكلَّف، والصحيح قول سيبويه.([[149]](#footnote-149))**

**ويرى القاضي البيضاوي متابعا الزمخشري ([[150]](#footnote-150)) أن الهمزة هنا للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره: (أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا)، وبهذا ترتبط هذه الآية بما قبلها برباط لطيف تقتضيه قرينة التضام ( وهى تعنى بافتقار الكلمة إلى تقدير يتم معنى الكلام ويحدده السياق، فتأمل).**

**(فالمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه، لأن مثل ذلك، إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيت. ودل بقوله أَوَكُلَّما عاهَدُوا على عهد بعد عهد نقضوه ونبذوه. بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم. فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات، بأن ذلك ليس ببدع منهم بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم. على ما بيّنه في الآيات المتقدمة من نقضهم العهود والمواثيق حالا بعد حال. لأن من يعتاد منه هذه الطريقة لا يصعب على النفس مخالفته، كصعوبة من لم تجر عادته بذلك.**

**واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله الميثاق منهم، ومن آبائهم، فنقضوا، وكم عاهدهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم يفوا؛ قال تعالى: {الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ} (الأنفال: 56)، والنبذ الرمي بالذمام، ورفضه. وإسناده إلى فريق منهم، لأن منهم مَن لم ينبذه. وفي قوله: { بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون.([[151]](#footnote-151))**

**قال العلامة ابن عاشور في التحرير (1/ 625):**

**وأسند النبذ إلى فريقٍ منهم وليس كلهم: إما باعتبار العصور التي نقضوا فيها العهود كما تؤذن به (كلما)، أو احتراسا من شمول الذم للذين آمنوا منهم. وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه أكثرهم بقوله: {بل أكثرهم لا يؤمنون} وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنه يوفي حق خصمه في الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتدرج وتدبر قبل الإبطال. ولك أن تجعلها للانتقال من شيء إلى ما هو أقوى منه في ذلك الغرض لأن النبذ قد يكون بمعنى عدم العمل دون الكفر.انتهى.**

**( قال تعالى: {وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ}**

**وهو تصريحٌ بما طُوى قبل. فإن نبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها، أعقبهم التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعته، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ }(الأعراف: 157) الآية، فتنكير رسول للتفخيم. والجار في قوله {من عند الله} متعلق بجاء، لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أنه من عند الله تعالى.**

 **وقوله {كِتابَ اللَّهِ} يعني التوراة، لأنهم بكفرهم برسول الله، المصدق لما معهم، كافرون بها، نابذون لها. وقيل {كِتابَ اللَّهِ} القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول.**

**وقوله تعالى: {وَراءَ ظُهُورِهِمْ} مثَّل لتركهم وإعراضهم عنه، مثّل بما يُرمَي به وراء الظهر استغناءً عنه، وقلة التفاتٍ إليه.**

**وقوله {كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ} جملة حال، أي نبذوه وراء ظهورهم، متشبّهين بمن لا يعلمه. فإن أريد بهم أحبارهم، فالمعنى كأنهم لا يعلمونه على وجه الإيقان، ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته صلّى الله عليه وسلّم. ففيه إيذان بأن علمهم به رصين، لكنهم يتجاهلون. أو كأنهم لا يعلمون أن القرآن كتاب الله.**

**وفي هذين الوجهين، زيادة مبالغة في إعراضهم عما في التوراة من دلائل النبوة. وإن أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن، فالمراد أنهم إنما يكفرون به مكابرة وعنادا.([[152]](#footnote-152))**

**\*\*\***

**أقول: وتأمل معي حدة ودقة التعبير بألفاظ (نبذ) الذي تكرر مرتين في آيتين متتاليتين، وجملة (وراء ظهورهم) التي تعبر عن مدى تغلغل الكفر والجحود في قلوب القوم، ومدى سوء أدبهم وفعالهم، ومدى قبح جرائمهم، فإن هذه الألفاظ بحد ذاتها معبرة جداً عن قبائح القوم، فتأمل. ثم اترك وجدانك يستقبل كلمة (كلما) التي تدل على تكرار خيانتهم ونقضهم العهود مرةً بعد مرةٍ. وكذلك قف بعقلك عند التعبير التهكمي الفاضح لخيبتهم في قوله تعالى: {كأنهم لا يعلمون}؛ إنهم يظنون أنهم يخدعون الله ورسوله بإدعاء جهلهم، وهم عالمون بما نزل عليهم، وبصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن من عند الله تعالى؛ كافرون بما علموه يقينا.**

**\*\*\*\***

**وما أجمل أن أدعك – أخي القارئ- مع تأمل آيات الله تعالى، والإحساس بعظمة وجمال وعبقرية ودقة اللغة القرآنية، وهى تعبر بمنتهى العمق عن خبايا النفوس، وتخاطب الوجدان والعقل والعاطفة والشعور بنفس المستوى الراقي من الهداية والامتاع والاقناع.**

**حقاً وصدقاً أردد مع سيدي عثمان بن عفان قوله:**

**( لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام ربنا).**

**وأدعو الله أن يغفر لي زللي،**

**وأن يجعله في ميزان حسناتي ووالدىّ،**

**وأن يحفظ أسرتي ببركة كتاب الله العظيم،**

**وأن يجمعني بإخوتي في الله دائما على مائدة القرآن.**

**والحمد لله رب العالمين.**

**والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.**

**وكتبه الفقير إلى عفو ربه تعالى**

**أبو عمر/ محمد عبد المعطي محمد.**

المحتويات

[**نقرأ سويا في هذا الكتاب** 2](#_Toc423817929)

[**بسم الله الرحمن الرحيم** 4](#_Toc423817930)

[**إشارة تذكير إلى قصة أصحاب السبت.** 8](#_Toc423817931)

[**خطاب بني إسرائيل الممتد في القرآن عبر الزمان، ورد لشبهة ؟؟** 9](#_Toc423817932)

[**عودٌ للآيات** 14](#_Toc423817933)

[**لمحة بلاغية في قوله تعالى { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.** 21](#_Toc423817934)

[**قصة البقرة** 22](#_Toc423817935)

[فصل: في الأسلوبية والسياق البلاغي الرائع لقصة البقرة. 31](#_Toc423817936)

[ما يؤخذ من قصة البقرة من عظاتٍ وعِبر. 34](#_Toc423817937)

[{ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك...} 39](#_Toc423817938)

[{ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ...} 46](#_Toc423817939)

[في لحُمة الآيات 46](#_Toc423817940)

[توجُّه الخطاب 48](#_Toc423817941)

[عودٌ إلى التفسير. 51](#_Toc423817942)

[ما مدى تحريف ما يحمله اليهود والنصارى اليوم من الكتاب؟ 54](#_Toc423817943)

[{وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا...}. 66](#_Toc423817944)

[{ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ...} 67](#_Toc423817945)

[وفي الآية فوائد كثيرة للتأمل منها:- 69](#_Toc423817946)

[{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً...} 75](#_Toc423817947)

[نقضهم المواثيق 80](#_Toc423817948)

[ميثاقٌ جديدٌ، ونقضٌ أيضاً 87](#_Toc423817949)

[فائدة 91](#_Toc423817950)

[وما زال العناد والهوى والإجرام شيمة القوم. 95](#_Toc423817951)

[{بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} 101](#_Toc423817952)

[{...فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ...} 106](#_Toc423817953)

[نكت المعاني والفوائد 112](#_Toc423817954)

[ادعاءٌ كاذب 116](#_Toc423817955)

[رحلة القرآن مع اليهود في سورة البقرة 118](#_Toc423817956)

[ما زال الحديث عن القوم ولجاجتهم 119](#_Toc423817957)

[هنا مبحث في التكرار في القرآن الكريم وقيمته الفنية والدلالية. 121](#_Toc423817958)

[عودٌ إلى الآيات. 129](#_Toc423817959)

[من فقه الدلالة في القرآن. 133](#_Toc423817960)

[البلاغة التصويرية في كتاب الله وتذوقها. 135](#_Toc423817961)

[{...وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...} 138](#_Toc423817962)

[القرآن بعظمته يكشف نفسية اليهود في كل العصور. 139](#_Toc423817963)

[نعود للآيات 143](#_Toc423817964)

[نقاش جميل بين المفسرين. 146](#_Toc423817965)

[{ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ...} 152](#_Toc423817966)

[[سورة البقرة: الآيات 97 الى 101] 157](#_Toc423817967)

[الخيانة طبعهم وديدنهم. 164](#_Toc423817968)

1. **(صحيح الجامع 2165)... أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أنس.** [↑](#footnote-ref-1)
2. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 90)** [↑](#footnote-ref-2)
3. **البرهان في علوم القرآن للزركشي (1/ 14)** [↑](#footnote-ref-3)
4. **تفسير المنار امحمد رشيد رضا (1/ 284).** [↑](#footnote-ref-4)
5. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (1/ 462)** [↑](#footnote-ref-5)
6. **التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم (1/ 94)** [↑](#footnote-ref-6)
7. **" في ظلال القرآن " (1/12).** [↑](#footnote-ref-7)
8. **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 159) بتصرف واختصار.** [↑](#footnote-ref-8)
9. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 540)** [↑](#footnote-ref-9)
10. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 542)** [↑](#footnote-ref-10)
11. **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (1/ 343)** [↑](#footnote-ref-11)
12. **تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (1/ 255) بتصرف يسير جدا.** [↑](#footnote-ref-12)
13. **تفسير الكشاف ج 1 ص 230.** [↑](#footnote-ref-13)
14. **التفسير الوسيط لطنطاوي (1/ 169)** [↑](#footnote-ref-14)
15. **« تفسير التحرير 1/529»** [↑](#footnote-ref-15)
16. **تفسير المنار ج 1 ص 151** [↑](#footnote-ref-16)
17. **راجع التفسير الوسيط لطنطاوي (1/ 173)** [↑](#footnote-ref-17)
18. **تفسير المنار (1/ 287)** [↑](#footnote-ref-18)
19. **تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 55،56)** [↑](#footnote-ref-19)
20. **في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله (1/ 77، 80).** [↑](#footnote-ref-20)
21. **تفسير المنار (1/ 287)** [↑](#footnote-ref-21)
22. **تفسير المنار (1/ 290)** [↑](#footnote-ref-22)
23. **حسن بشواهده كما قال محققو المسند. وحسنه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته (1/ 447/ 2246).** [↑](#footnote-ref-23)
24. **راجع مسند أحمد ط الرسالة (20/ 347)** [↑](#footnote-ref-24)
25. **مجلة لواء الإسلام العدد السابع السنة الثانية ص 8.** [↑](#footnote-ref-25)
26. **انظر: "تفسير الطبري" 1/ 365، وقد قال بعد أن ذكر هذه الأقوال: (وهذه الأقوال وإن كانت غير بعيدات المعنى مما تحتمله الآية من التأويل، فإن تأويل أهل التأويل من علماء سلف الأمة بخلافها، فلذلك لم نستجز صرف تأويل الآية إلى معنى منها)، 2/ 243، وإلى نحو هذا مال القرطبي في "تفسيره" وقال: إنه لا يمتنع أن يعطي الله الجمادات المعرفة والعقل ولا ندرك نحن كيفيته، 1/ 465، وانظر: "تفسير ابن كثير" 1/ 121، و التفسير البسيط للواحدي (3/ 76).** [↑](#footnote-ref-26)
27. **راجع تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 555-562) باختصار وتصرف ونقاش. وراجع أيضا التفسير الوسيط لطنطاوي (1/ 173).** [↑](#footnote-ref-27)
28. **انظر العلامة الفخر الرازي رحمه الله في مفاتح الغيب(2/ 163، بترقيم الشاملة).** [↑](#footnote-ref-28)
29. **تفسير المنار (1/ 294)** [↑](#footnote-ref-29)
30. **اقرأ لذلك مشكورا كتاب: حصان طروادة الغارة الفكرية على الديار السنية د. عمرو كامل عمر، دار القمري، الطبعة: الثانية، 1435 هـ - 2014 م. فإنه كتاب جامع في بابه وجميل في عرضه وموثق جدا. وأما أسطورة حصان طروادة: هي جزء من أساطير حرب طروادة. تقول الأسطورة إن الجنود الإغريق حاصروا مدينة طروادة Troy لمدة عشر سنين، ولما تعذر عليهم فتحها ابتدعوا حصانًا خشبيًا ضخمًا أجوف ملئوه بالمحاربين، ثم تظاهر سائر الجيش بالانسحاب تاركين الحصان الذي فهم الطرواديون أنه عرض سلام، خاصة بعد أن أقنعهم جاسوس إغريقي بأنه هدية، فقاموا بجره إلى داخل المدينة رغم تحذير لاكون Laocoon وكاساندرا Cassandra، وشرعوا يحتفلون بانتهاء الحصار، ولما خرج الجنود من الحصان، وجدوا السكان في حالة السكر، ففتحوا بوابات المدينة ليدخل باقي جيشهم، فنهبت المدينة، وقتل رجالها بلا رحمة، واستعبد النساء والأطفال.** [↑](#footnote-ref-30)
31. **تفسير الرازي (2/ 164، بترقيم الشاملة آليا)** [↑](#footnote-ref-31)
32. **تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 334) بتصرفٍ يسير.** [↑](#footnote-ref-32)
33. **الهداية الى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (1/ 315) باختصار يسير.** [↑](#footnote-ref-33)
34. **وقال البخاري رحمه الله: (يحرِّفون: أى يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتابٍ من كتب الله عز وجل، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله).قال ابن حجر: (مراد البخاري بقوله: (يتأولونه) أنهم يحرفون المراد؛ بضربٍ من التأويل، كما لو كانت الكلمة بالعبرانية تحتمل معنيين قريب وبعيد، وكان المراد القريب؛ فإنهم يحملونها على البعيد، ونحو ذلك) انتهى من (فتح الباري مع صحيح البخاري ) (15/ 507).** [↑](#footnote-ref-34)
35. **(تفسير الطبري) م1 (1/ 483، 484) بتصرف واختصار.** [↑](#footnote-ref-35)
36. **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 168)** [↑](#footnote-ref-36)
37. **المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: 228)** [↑](#footnote-ref-37)
38. **(هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) لابن القيم (ص: 48).** [↑](#footnote-ref-38)
39. **السنة لابن أبي عاصم ومعها ظلال الجنة للألباني (1/ 27). وفيه قال الشيخ الألباني رحمه الله: حديث حسن إسناده ثقات غير مجالد وهو ابن سعيد فإنه ضعيف ولكن الحديث حسن له طرق أشرت إليها في "المشكاة" 177 ثم خرجت بعضها في "الإرواء" 1589.** [↑](#footnote-ref-39)
40. **شرح السنة للبغوي (1/ 271)** [↑](#footnote-ref-40)
41. **(الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى) للقرافي (ص: 51، ص 116).** [↑](#footnote-ref-41)
42. **(هداية الحياري) (ص: 101).** [↑](#footnote-ref-42)
43. **(الفصل) لابن حزم (1/ 251، 252) باختصار** [↑](#footnote-ref-43)
44. **راجع مقالاً جميلاً كتبه د/ محمد عبد المجيد لا شين ردا على الأنبا بيشوى الذي هاجم القرآن وادعى ما ادعته الروافض من تحريفه وحاشاه. فرده عليه بمقال رائع وسماه ( الأنبا براقش) تجده على موقع العرب نيوز الالكتروني وعنوانه** [**http://alarabnews.com/show.asp?NewId=27010&PageID=26&PartID=12**](http://alarabnews.com/show.asp?NewId=27010&PageID=26&PartID=12) **وعنه نقلت كثيرا في هذا الموضع.** [↑](#footnote-ref-44)
45. **أذكِّركم بأنَّ عدد الأسفار يختلف ما بين الكنائس المسيحيَّة المختلفة ؛ فعدد الأسفار في نسخة البروتستنت 66 سفرًا ( القديم 39 ، والجديد 27 ) ، وعدد الأسفار في نسخة الرومان الكاثوليك 73 سفرًا ( القديم 46 ، والجديد 27 ).** [↑](#footnote-ref-45)
46. **يطلق مصطلح " الأناجيل الإزائيَّة Synoptic Gospels " على ثلاثة فقط من أربعة الأناجيل القانونيَّة الَّتي اعتمدتها الكنيسة ، وهي إنجيل: متَّى ، ومرقس ، ولوقا.**  [↑](#footnote-ref-46)
47. **الشريعة الخطيَّة ص 123.** [↑](#footnote-ref-47)
48. **" الله في العقيدة المسيحيَّة " مكتبة ديدات ، المجموعة الثانية 213 ، وانظر مقدِّمة إنجيل برنابا للدكتور خليل سعادة 32 ، وإظهار الحق 1 / 95.** [↑](#footnote-ref-48)
49. **اختلف اللاهوتيُّون في تحديد عدد ( الأناجيل ) المعروفة لهم ، والأرقام المذكورة في كتبهم تدور حول الأعداد 50 ، 70 ، 100 ولكنَّ الكنيسة لم تعترف إلاَّ بأربعة منها فقط ، واستبعدت ما عداها ؛ لأنَّها لا تخدم أغراضها ، ولا تتفق مع مبادئها ، وأطلقت عليها لقب الأبوكريفا Apocryphe أي: المخفيَّة أو المنحولة.** [↑](#footnote-ref-49)
50. **الشريعة الخطيَّة 286 ، وإظهار الحق 1/96.** [↑](#footnote-ref-50)
51. **الموسوعة الشاميَّة 3 / 84.** [↑](#footnote-ref-51)
52. **الجزء الأول من مكتبة ديدات " هل الكتاب المقدس كلام الله " 199.** [↑](#footnote-ref-52)
53. **شفرة دافنشي والمؤسسة الكنسية ، د.زينب عبد العزيز مقال في جريدة الشعب الإلكترونية بتاريخ 19/ 5 / 2006م.** [↑](#footnote-ref-53)
54. **ـقصة الحضارة 2/385.** [↑](#footnote-ref-54)
55. **الموسوعة الأثرية العالمية 165.** [↑](#footnote-ref-55)
56. **محمد في الكتاب المقدس 30.** [↑](#footnote-ref-56)
57. **تفسير السمعاني (1/ 98)** [↑](#footnote-ref-57)
58. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 157)** [↑](#footnote-ref-58)
59. **ومثله من قول حسان يرثي عثمان رضى الله عنهما:**

**تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ... تَمَنِّىَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ.**

**يقول: تمنى كتاب اللَّه، أى تلاه وتابع في تلاوته كتمني داود عليه السلام الزبور: أى كتلاوته الزبور على رسل بالكسر: أى تؤدة وسكينة.** [↑](#footnote-ref-59)
60. **راجع كتاب معاني القرآن للفراء اللغوي النحوي الكبير (المتوفى: 207هـ) (1/ 49) ملخصاً.** [↑](#footnote-ref-60)
61. **قال ابن جرير الطبري: وأولى ما روينا في تأويل قوله تعالى {إِلَّا أَمانِيَّ} أن هؤلاء الأميين لا يفقهون، من الكتاب الذي أنزله الله، شيئا. ولكنهم يتخرصون الكذب ويتقوّلون الأباطيل كذبا وزورا. والتمني في هذا الموضع هو تخلّق الكذب وتخرّصه وافتعاله. انتهى.** [↑](#footnote-ref-61)
62. **تفسير المنار (1/ 298)** [↑](#footnote-ref-62)
63. **فتح القدير للشوكاني (1/ 123)** [↑](#footnote-ref-63)
64. **السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ط دار ابن كثير دمشق ط 13 هامش (ص: 181).** [↑](#footnote-ref-64)
65. **جاء في فتح القدير للشوكاني (1/ 123): وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْأَصْلُ فِي الْوَيْلِ وَيْ: أَيْ حُزْنٌ، كَمَا تَقُولُ: وَيْ لِفُلَانٍ: أَيْ حُزْنٌ لَهُ، فَوَصَلَتْهُ الْعَرَبُ بِاللَّامِ، قَالَ الْخَلِيلُ: وَلَمْ نَسْمَعْ عَلَى بِنَائِهِ إِلَّا وَيْحَ، وَوَيْسَ، ووَيْهَ، وَوَيْكَ، وَوَيْبَ، وَكُلُّهُ مُتَقَارِبٌ فِي الْمَعْنَى، وَقَدْ فَرَّقَ بَيْنَهَا قَوْمٌ وَهِيَ مَصَادِرُ لَمْ يَنْطِقِ الْعَرَبُ بِأَفْعَالِهَا، وَجَازَ الِابْتِدَاءُ به وإن كان نكرة لأن فِيهِ مَعْنَى الدُّعَاءِ.انتهى. وقال أبو السعود في تفسيره (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (1/ 120): ومعنى الويلِ شدةُ الشر قاله الخليل. وقال الأصمعيُّ: الويلُ التفجُّع ، والويحُ الترحُّم. وقال سيبويه: ويلٌ لمن وقع في الهَلَكة، وويحٌ زجرٌ لمن أشرف على الهلاك. وقيل الويلُ الحزن، وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق؟ وقيل: ويل في الدعاء عليه، وويح وما بعده في الترحم عليه. وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهما: الويلُ العذاب الأليم. وعن سفيان الثوري أنه صديدُ أهلِ جهنم. ورَوى أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ الله تعالى عنه عنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم أنه قال: الويلُ وادٍ في جهنمَ يهوي فيه الكافرُ أربعينَ خريفاً قبل أنْ يبلُغ قَعْرَه.(قال الألباني: ضعيف، التعليق الرغيب (4 / 229)، ضعيف الجامع الصغير (6148). وقال سعيد ابن المسيب: إنه وادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حرِّه. وقال ابن بريدة: جبلُ قيحٍ ودمٍ وقيل صهريج في جهنم وحكى الزهراوي أنه باب من أبواب جهنم. انتهى.** [↑](#footnote-ref-65)
66. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 240) بتصرف يسير.** [↑](#footnote-ref-66)
67. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 565)** [↑](#footnote-ref-67)
68. **تفسير المنار (1/ 299)** [↑](#footnote-ref-68)
69. **تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 56)** [↑](#footnote-ref-69)
70. **انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 563) بتلخيص وتصرف.** [↑](#footnote-ref-70)
71. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 242) بتصرف يسير.** [↑](#footnote-ref-71)
72. **وهل هذا بطريقِ تضمينِ الاستفهامِ معنى الشرطِ، أو بطريقِ إضمار الشرطِ بعدَ الاستفهامِ وأخواتِهِ؟ قولان.** [↑](#footnote-ref-72)
73. **جاء في الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للحلبي(1/ 455): أي بلى تَمَسُّكم أبداً، بدليلِ قولِه: {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} قاله الزمخشري، يريد أن «أبداً» في مقابَلَةِ قولهم: {إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً} وهو تقديرٌ حَسَنٌ. قلتُ: وإن كنت أشم في تقدير الزمخشري رائحة نصرة عقيدته في الاعتزال، والتي فيها تخليد أصحاب الكبائر في جهنم.**  [↑](#footnote-ref-73)
74. **تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 315)** [↑](#footnote-ref-74)
75. **أخرجه الإمام أحمد في المسند بسند حسن، ونحوه من حديث سهلٍ بن سعد بسند صحيح.** [↑](#footnote-ref-75)
76. **تفسير المنار (1/ 300)** [↑](#footnote-ref-76)
77. **اختاره الزمخشري وقال: ويؤيده قراءة عبد اللَّه بن مسعود وأبىّ بن كعب رضى الله عنهما (لا تعبدوا). وكذلك عطف الأمر عليه في {وقولوا للناس حسنا}. أو هو يجري مجرى القسم، كأنه قيل: وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون. وقيل: معناه أن لا تعبدوا، بحذف «أن».. ا.ه. من تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 159) بتصرف** [↑](#footnote-ref-77)
78. **تفسير المنار (1/ 303)** [↑](#footnote-ref-78)
79. **(الْأَعْرَافِ: 59، 65، 73، 85، وهود 50، 61، 84، المؤمنون23،المؤمنون 32) فلقد تكررت هذه العبارة بنصها {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} تسع مرات في القرآن العظيم. وتكررت عبارة { اعْبُدُوا اللَّهَ } في كتاب الله تعالى (16) مرة (المائدة72 ،117 - الأعراف59 ،65 ،73 ،85 - هود50 ،61 ،84 – النحل 36 -المؤمنون23 ،32 - النمل45 - العنكبوت16،36 – نوح 3 )، وجاءت عبارة {وَاعْبُدُوا اللَّهَ} مرة واحدة في النساء36. راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي مادة (عبد) ج1/ ص441 ط دار الحديث، والمعجم المفهرس لمعاني القرآن ، محمد بسام رشدي الزين ج2/ ص773 باب ( عبادة) ط.دار الفكر المعاصر بيروت ودمشق.** [↑](#footnote-ref-79)
80. **مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول) (ص: 376)** [↑](#footnote-ref-80)
81. **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ت حسين أسد (4/ 93). وروى أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن أكبر الكبائر عُقُوقُ الوالديْن"، قال: قيل: وما عقوق الوالدين؟، قال: "يَسبُّ الرجل الرجلْ فَيَسُبُّ أباه، ويسبُّ أُمَّه فيسبُّ أمَّه".( قال أحمد شاكر: صحيح).** [↑](#footnote-ref-81)
82. **صحيح «الإرواء» (1198). وكذا في الأدب: عن طَيْسَلة (واسمه علي) بْنُ مَيّاس قَالَ: قال لي بن عمر أتفْرَق ( أى تخاف) من النَّارَ وَتُحِبُّ أَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟ قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ. قَالَ: أَحَيٌّ وَالِدُكَ؟. قُلْتُ: عِنْدِي أُمِّي قَالَ: فَوَاللَّهِ لَوْ أَلَنْتَ لَهَا الْكَلَامَ وَأَطْعَمْتَهَا الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر. صحيح «الصحيحة» (2898).**  [↑](#footnote-ref-82)
83. **تفسير المنار (1/ 305)** [↑](#footnote-ref-83)
84. **تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 57-58)** [↑](#footnote-ref-84)
85. **راجع مشكورا الملاحق.** [↑](#footnote-ref-85)
86. **التفسير البسيط (3/ 115).** [↑](#footnote-ref-86)
87. **التفسير البسيط للواحدي (3/ 116-117) ط جامعة الإمام محمد بن سعود.** [↑](#footnote-ref-87)
88. **قرأ الكوفيون (عاصم، وحمزة والكسائي) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، ينظر: "السبعة" ص162 - 163و"النشر" 2/ 218.** [↑](#footnote-ref-88)
89. **قرأ حمزة (أَسْرى) بفتح الهمزة وسكون السين من غير ألف، وقرأ الباقون بضم الهمزة وألف بعد السين. ينظر: "السبعة" ص 163، و"التيسير" ص 64، "النشر" 2/ 218.** [↑](#footnote-ref-89)
90. **قرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، وعاصم والكسائي ويعقوب (تفادوهم) بضم التاء وألف بعد الفاء، وقرأ الباقون بفتح التاء وسكون الفاء من غير ألف. ينظر "السبعة" ص 162 - 163، "التيسير" للداني ص 64، و"النشر" 2/ 218.** [↑](#footnote-ref-90)
91. **التفسير القرآني للقرآن (1/ 106) ط دار الفكر العربي القاهرة.** [↑](#footnote-ref-91)
92. **راجع التفسير البسيط للواحدي (3/ 127) نقلت عنه بتلخيص وتصرف يسير.** [↑](#footnote-ref-92)
93. **تفسير المنار (1/ 311)** [↑](#footnote-ref-93)
94. **التحرير والتنوير لابن عاشور (1/ 592) الدار التونسية للنشر تونس. بتصرف.** [↑](#footnote-ref-94)
95. **زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 86)** [↑](#footnote-ref-95)
96. **تفسير المنار (1/ 312)** [↑](#footnote-ref-96)
97. **تفسير المنار (1/ 312)** [↑](#footnote-ref-97)
98. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 162).** [↑](#footnote-ref-98)
99. **التحرير والتنوير (1/ 599) بتصرف يسير.** [↑](#footnote-ref-99)
100. **تفسير فتح القدير للشوكاني (1/75).** [↑](#footnote-ref-100)
101. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 256)** [↑](#footnote-ref-101)
102. **مجموع الفتاوى (16/ 13)** [↑](#footnote-ref-102)
103. **يقول العلامة ابن قيم الجوزية: وأما قول من قال: هي أوعية للحكمة، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة. وليس له في القرآن نظير يحمل عليه، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل: قلبي غلاف، وقلوب المؤمنين العالمين غلف، أي أوعية للعلم.**

**والغلاف قد يكون وعاء للجيد والرديء. فلا يلزم من كون القلب غلافا أن يكون داخله العلم والحكمة. وهذا ظاهر جدا.**

**فإن قيل: فما معنى الإضراب: ب«بل» على هذا القول الذي قويتموه ؟.**

**أما على القول الآخر فظاهر، أي ليست قلوبكم محلا للعلم والحكمة، بل مطبوع عليها.**

**قيل: وجه الإضراب هنا في غاية الظهور. وهو انهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه. فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أنّ قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان. فأكذبهم الله وقال: {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} وفي الآية الأخرى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ} فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان. فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.**

**والمعنى: ان الله تعالى لم يخلق قلوبهم غلفا لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها. انتهى من التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: 138)** [↑](#footnote-ref-103)
104. **التحرير والتنوير لابن عاشور (1/ 600)** [↑](#footnote-ref-104)
105. **مستفاد من كلام الحرالي رحمه الله نقلا عن نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (2/ 34). قال: كما كان في حق إبليس مع آدم عليه السلام، فانتظم صدر هذه السورة إظهار الشيطنتين من الجن (إبليس) ومن الإنس (اليهود) وهو الذي انختم به القرآن في قوله: {من الجِنَّة والناس} (الناس: 6) ليتصل طرفاه، فيكون لا أول له ولا آخر، والفاتحة محيطة به لا يقال: هي أوله ولا آخره، ولذلك ختم بعض القراء بوصله (= قرأ الناس ثم (ألم) البقرة) حتى لا يتبين له طرف، كما قالت المراة العربية لما سُئلت عن بنيها: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها. انتهى كلامه. فسبحان مَنْ جعل كلام متصلاً ككلمةٍ واحدةٍ لا أول لها ولا آخر.** [↑](#footnote-ref-105)
106. **تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (1/ 313)** [↑](#footnote-ref-106)
107. **التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم الخطيب (1/ 108)ط دار الفكر العربي/ القاهرة.** [↑](#footnote-ref-107)
108. **تفسير المنار (1/ 315)** [↑](#footnote-ref-108)
109. **في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب عفا الله عنه (1/ 90)** [↑](#footnote-ref-109)
110. **معاني القرآن للفراء (1/ 56)** [↑](#footnote-ref-110)
111. **(أفاده الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: 137).** [↑](#footnote-ref-111)
112. **تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 350)** [↑](#footnote-ref-112)
113. **تفسير السمرقندي = بحر العلوم (1/ 73) بتصرف يسير.** [↑](#footnote-ref-113)
114. **التفسير القرآني للقرآن (1/ 111)** [↑](#footnote-ref-114)
115. **تفسير المنار (1/ 319)** [↑](#footnote-ref-115)
116. **معانى القرآن الكريم للفراء (3/ 287) وينظر (1/ 177).ومجاز القرآن لأبي عبيد(1/ 12).** [↑](#footnote-ref-116)
117. **بيان إعجاز القرآن الكريم (47) ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط: دار المعارف- القاهرة. الطبعة الرابعة.** [↑](#footnote-ref-117)
118. **خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية (القسم الأول) مكتبة وهبة- القاهرة.** [↑](#footnote-ref-118)
119. **الموسوعة القرآنية المتخصصة (1/ 461) مقال بحثه: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعنى.** [↑](#footnote-ref-119)
120. **سلسلة حتى لا نخطئ فهم القرآن للشيخ محمود غريب(ص: 20، بترقيم الشاملة آليا).** [↑](#footnote-ref-120)
121. **تفسير الشعراوي (7/ 4063)** [↑](#footnote-ref-121)
122. **تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 261)** [↑](#footnote-ref-122)
123. **أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 99، بترقيم الشاملة آليا).** [↑](#footnote-ref-123)
124. **التفسير البسيط للواحدي(3/ 158-163) تحقيق وطباعة جامعة الملك محمد بن سعود، بتصرف واختصار يسير.** [↑](#footnote-ref-124)
125. **التفسير القرآني للقرآن (1/ 111)** [↑](#footnote-ref-125)
126. **المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني(ص: 425-427) بترف يسير.** [↑](#footnote-ref-126)
127. **( من كتاب التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية ، علي علي صبح ، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث ، ج1ص59 بتصرف يسير ).** [↑](#footnote-ref-127)
128. **(الكشاف ج2ص133)** [↑](#footnote-ref-128)
129. **مستفاد من كلام العلامة الفخر الرازي في تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 605) بتصرف وزيادات.** [↑](#footnote-ref-129)
130. **راجع الموسوعة الحرة على الشبكة العنكبوتية صفحة (أغيار)** [**https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%BA%D9%8A%D8%A7%D8%B1**](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%BA%D9%8A%D8%A7%D8%B1) **نقلا عن المصدر الرئيسى للمقالة وهو:**

**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - د.عبد الوهاب المسيرى[المجلد الخامس - الجزء الثاني - الباب الخامس عشر ]. وكتاب: من اليهودية إلى الصهيونية - د.أسعد السحمرانى.** [↑](#footnote-ref-130)
131. **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 606)** [↑](#footnote-ref-131)
132. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 167).**  [↑](#footnote-ref-132)
133. **مراتب الرواة عن ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير:**

**المرتبة الأولى: من اشتهر بالرواية عنه في التفسير وأكثروا عنه الرواية وهم ثقات أثبات وهم ثلاثة: عكرمة ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير.**

**قال السيوطي: ( ومن جيد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين وكثيرا ما يخرج منها الفريابي والحاكم في مستدركه ، ومن ذلك طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عنه هكذا بالترديد وهي طرق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا وفي معجم الطبراني الكبير منها أشياء )**

**المرتبة الثانية: الرواة الأثبات لكنهم مقلون في الرواية عنه في التفسير وهم طاووس ، وأبو مالك غزوان الغفاري.**

**المرتبة الثالثة: الرواة الذين رووا كثيرا عن ابن عباس في التفسير وهم في مرتبة الصدوق ومنهم علي بن أبي طلحة لكن الأئمة طعنوا في روايته عنه لكونه لم يلق ابن عباس ولم يسمع منه إجماعا فروايته عنه منقطعة لكن قال الحافظ وغيره إذا عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير والواسطة هو مجاهد بن جبر ، وقال أحمد: ( بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا ) أسنده أبو جعفر النحاس في ناسخه.**

**المرتبة الرابعة: مرتبة الرواة الضعفاء عن ابن عباس ومنهم عطية العوفي وقد أكثر من الرواية عنه في التفسير وكثيرا ما يذكر ابن جرير تفسير ابن عباس من هذا الطريق ، وكذا أبو صالح باذام مولى أم هانيء وهو ضعيف وكثيرا ماروى عنه السدي الكبير إسماعيل بن عبدالرحمن وهو صدوق يهم ورمي بالتشيع وكذا روى عن أبي صالح محمد بن السائب الكلبي وهو متهم بالكذب قال أبو حاتم: الناس مجمعون على ترك حديثه وهو ذاهب الحديث لا يشتغل به.**

**ينظر للفائدة: الإتقان للسيوطي ( 2 / 189 ) تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة د. عبد العزيز الحميدي ( 1 / 24 - 27 )** [↑](#footnote-ref-133)
134. **تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 331). قال: وقال ابن جرير في تفسيره: وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا. ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا}. حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

**ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقي أبي يزيد حدثنا فرات، عن عبد الكريم، به.** [↑](#footnote-ref-134)
135. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 167)** [↑](#footnote-ref-135)
136. **التحرير والتنوير (1/ 617)** [↑](#footnote-ref-136)
137. **راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 369)، والتفسير الوسيط للواحدي (1/ 177)، والهداية الى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب المالكي الأندلسي القارئ (1/ 356)، وتفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 168)، و تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 609).** [↑](#footnote-ref-137)
138. **في ظلال القرآن لسيد قطب (1/ 92).** [↑](#footnote-ref-138)
139. **التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم الخطيب(1/ 112)** [↑](#footnote-ref-139)
140. **لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 108)** [↑](#footnote-ref-140)
141. **التفسير الوسيط للدكتور/ سيد طنطاوي رحمه الله (1/ 216)** [↑](#footnote-ref-141)
142. **تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 60)** [↑](#footnote-ref-142)
143. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 170)** [↑](#footnote-ref-143)
144. **راجع تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (2/ 127) بتصرف واختصار.** [↑](#footnote-ref-144)
145. **تفسير حدائق الروح والريحان (2/ 133)** [↑](#footnote-ref-145)
146. **التفسير القرآني للقرآن (1/ 113)** [↑](#footnote-ref-146)
147. **التفسير القرآني للقرآن (1/ 115)** [↑](#footnote-ref-147)
148. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للعلامة الشنقيطي(1/ 42)** [↑](#footnote-ref-148)
149. **تفسير القرطبي (2/ 39)** [↑](#footnote-ref-149)
150. **تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 96)** [↑](#footnote-ref-150)
151. **تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 362).** [↑](#footnote-ref-151)
152. **تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 362) بتصرف.** [↑](#footnote-ref-152)